الإنجاز العلمي العربي

وتأثيره على النهضة الأوربية

اكتشافات ابن النفيس

علاء الدين أبي الحزم القرشي

المتوفى سنة ٦٨٧ هـ

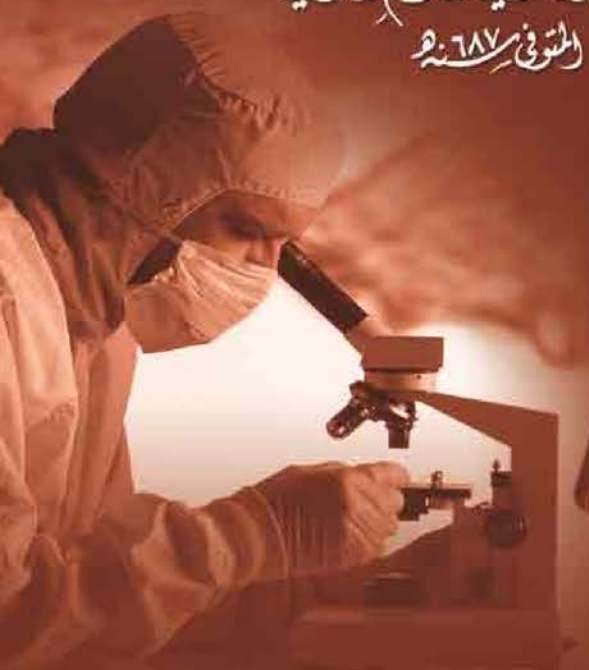

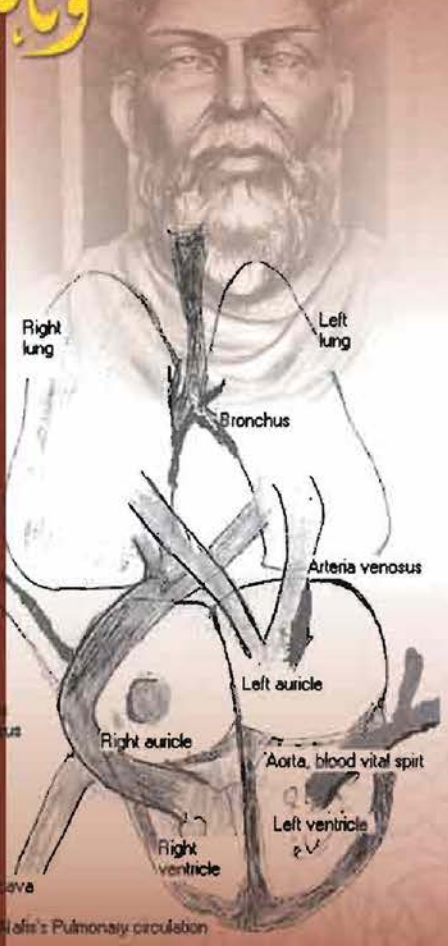

الدكتور محمد سعيد تكروري

أستاذ علم التخدير والعلاج المركز

جامعة الملك سعود بالرياض

الدكتور أمير محمد الخليف

استشاري التخدير والعلاج المركز

مستشفى الملك خالد الجامعي بالرياض

http://kotob.has.it

الإنجاز العلمي العربي وتأثيره على النهضة الأوربية

اكتشافات ابن النفيس

علاء الدين أبي الحزم القرشي

المتوفى سنة ٦٨٧ هـ

الدكتور محمد سعيد تكروري

أستاذ علم التخدير والعلاج المركز

جامعة الملك سعود بالرياض

الدكتور أمين محمد الخلف

استشاري التخدير والعلاج المركز

مستشفى الملك خالد الجامعي بالرياض

http://kotob.has.it

ح محمد سعيد تكروري، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تكروري، محمد سعيد ، الخلف، ميزر محمد

الإنجاز العلمي العربي وتأثيره على النهضة الأوربية . اكتشافات ابن النفيس/ محمد سعيد تكروري؛ ميزر محمد الخلف . الرياض، ١٤٢٤هـ

١٧٦ص ؛ ١٦,٥ × ٢٤سم

ردمك: ١ ـ ٧٢٢ ـ ٤٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ ابن النفيس، علي بن أبي الحزم، ت٦٨٧هـ

٢ ـ الطب عند المسلمين ٣ ـ العلماء العرب

أ ـ الخلف، ميزر محمد (مؤلف مشارك) ب . العنوان

ديوي ١,٩٢٦ ٣١١/ ١٤٢٤

ردمك: ١ ـ ٧٢٢ ـ ٤٣ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣١١/ ١٤٢٤

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلفين

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

الفهرس

الموضوع	الصفحة
فهرس المحتويات	هـ
خطبة الكتاب	ط
المدخل	م
الفصل الأول	
ترجمة حياة ابن النفيس	١
- من هو (ابن النفيس)؟	١
- حياة ابن النفيس	٢
صفات ابن النفيس	٥
عصره	٦
الفصل الثاني	
الخلفية العلمية والتاريخية التي ارتكز عليها تكوين ابن النفيس	١١
١- الاتصال مع الحضارة اليونانية والطب العربي الاسلامي	١١
الترجمة الطبية ترجمة كتب التراث اليوناني	١١
٢ - التشريح في التراث الطبي وتأثير جالينوس فيه	١٤
مدرسة الإسكندرية	١٤
٣- كيف وصل حال علم التشريح إلى العرب ومدى تأثره بجالينوس؟	١٦
٤- ابن النفيس وقضية التشريح من المنظور الإسلامي	٢٠
الفصل الثالث	
مؤلفات ابن النفيس	٣١

http://kotob.has.it

جدول المؤلفات المطبوعة والمخطوطة الجديد ٤٣
جدول المؤلفات المفقودة حسب يوسف زيدان ٤٤
جدول المؤلفات حسب ماهر عبد القادر ٤٥
جدول المؤلفات مقارنة بين المؤرخين ٥١

الفصل الرابع

الدورة الدموية الصغرى: ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية الرئوية ٥٣
١- الدورة الدموية حسب المفاهيم المعاصرة ٥٥
٢- الدورة الدموية حسب مفاهيم جالينوس وابن سينا ٥٦
٣- الدورة الدموية الرئوية حسب وصف ابن النفيس ٥٨
معرفة تشريحية عن تغذية القلب والمعدة والأمعاء والمرارة والكحلة ٦١
كيف انتقلت نظريته إلى أوربا ٦٦
الصور ٨١

الفصل الخامس

فلسفة ابن النفيس من خلال الرسالة الكاملية وبعض مؤلفاته الطبية.. ٩١
مكانة الرسالة الكمالية بين القصص الفلسفية ٩٢
معالم من فلسفة ابن النفيس ١٠٥
١ ـ نظرية المعرفة ١٠٥
٢ ـ وجود الله ١١٠
٣ ـ النبوة ١١٣
٤ ـ الأحكام الشرعية ١١٧
٥ ـ النفس الإنسانية ١٢١
٦ ـ المادة أو الطبيعة ١٣٠

http://kotob.has.it

٧ ـ التوالد الذاتي ١٣٢
٨ ـ نقده للأطباء ١٣٥
٩ ـ الفراسة ١٣٧
١٠ ـ الغائية ١٣٩
١١ ـ فناء العالم ١٤٢
١٢ ـ البعث ١٤٣
١٣ ـ الاجتماع البشري ١٤٥
١٤ ـ التربية ١٤٨
١٥ ـ الجمال ١٤٩
خاتمة ١٥٣
المراجع ١٥٥
الملحق الإنجليزي ١٦١

******

http://kotob.has.it

خطبة الكتاب

الحمد لله، عالم الجهر والإسرار، حمداً دائماً بالعشي والإبكار.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسوله المختار، عليه الصلاة والسلام وعلى أهله وأزواجه وصحبه الأبرار صلاة وسلاماً يدوم ما دام الليل والنهار.

أما بعـــد

فهذا كتاب عن ابن النفيس علاء الدين أبي الحزم القرشي، واكتشافاته، واسهاماته، اختصرناه مما كتب علماء تاريخ الطب ومما بحثوا فيه عن حياة هذا العالم التقي الطبيب الفقيه، رضوان الله عليه، فكانت كتاباتهم تتالى ويَجُبُّ بعضها بعضاً فكانوا سادة أفاضل يتابعون البحث ويحدثونه مما أكدَّ فضلهم وسَبْقهم. وأملنا أن نقدم كتاباً يجمع جواهر علمهم في مُختصر مفيد، وأضفنا لما وجدوه صوراً للمكان الذي يُعتقد أنه ولد فيه وترعرع، والمدرسة التي درس عليها وللمستشفى الذي عمل فيه. وزدنا شرحاً على شرح لما علمناه عن الدورة الدموية.

واتصلنا ببعضهم فزودونا بما كتبوه ومنهم من دلنا على مراجع ومنهم من أرسل لنا بمساهماته ونذكر هؤلاء العلماء لنشكر الأحياء منهم ولنطلب الرحمة لمن لم يعد بيننا. فنبتدأ بالطبيب محي الدين التطاوي المتوفي عام ١٩٤٦م وعبدالكريم الشحاده ـ أمدّ الله في عمره ـ وبول غليونجي، والبير اسكندر، وسلمان قطايه، وماهر عبدالقادر علي، ويوسف زيدان، ومحمد ظافر الوفائي،

http://kotob.has.it

ومحمد رواس قلعة جي، وعبدالرحمن العوضي، وأحمد رجائي الجندي، وعبدالحميد بسيوني، ومختار بشر، وعمار الطالبي. ممن كانت أعمالهم أسساً بنينا عليها أو أدرجناها مثلاً يحتذى للبحث والإفادة.

وندعي أنهم عملوا فكان عملهم صادقاً وأنتجوا فكان جهدهم خالصاً وكانوا شهداء على الناس يحقون الحق يدافعون عن حياضه بالفكر والقلم والبحث الدقيق. فأناروا الطريق لمن بعدهم، وأرشدوا من يليهم إلى تمام الصلاح. نفعنا الله وإياهم بالعلم الذي رصدوه وأجَرنا وأجَرهم بفضله وحسن جزاءه. ونقول لقد قام الخلف بحق السلف حفظاً لترجمتهم وتاريخهم وخدمة للتراث وإحياء للذكرى.

«ومن ورخ مؤمناً فكأنما أحياه»، وكما نرى فإن ترجمة ابن النفيس مدارس للأجيال في علومهم وعملهم. وكيف لا نذكر الحق لصاحبه. فمن أرَّخ لشخص أو عالم فإنما أن يكون موالياً له متأثر به فيراه من زاوية الرضا. أو معادٍ له فعين السخط تبدي المساويا. وإما بعيد معتدل يقيِّم بميزان الإعتدال فيفوته ما لم يكن حريصاً عليه. لذلك لم تكن كتابة كاتب عن إنسان مطابقه كل التطابق، أو مكتملة غاية الإكتمال.

فنقول أن كلاً من أساتذتنا الأفاضل، الذين أتينا على ذكرهم، عملوا بحق. فكان لكلٍ اسهماته التي لا يمكن طمسها، وتؤول إليه وحده. فندعو الله أن يتقبل عملهم وعملنا في ميزان الخير والحسنات. كما ندعوه أن يتقبل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعنا والمسلمين، والإنسانية به. فإن كان نافعاً للقارئ فمنه تعالى، وإن شابه شائب، فمن أنفسنا القاصرة.

http://kotob.has.it

وندعوا بالرحمة والمغفرة لوالدينا ولإخواننا المسلمين الذين أضاؤوا لنا طريق الخير.

ونحمده تعالى على أن أعاننا على إتمام العمل تماماً لا يكمل. وأن يكتب ثوابه لكل من ساهم في إنتاجه من أسرتينا وأولادنا وزملائنا ومن مدراء دار النشر والطباعة والتصفيف والتنضيد، ولمن درسه وقرأه جعلهم الله منتفعين بفضله.

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الرياض، ٢٠٠٣ الموافق ١٤٢٤هـ.

محمد سعيد تكروري　　ميزر محمد الخلف

*****

http://kotob.has.it

المدخـــل

غرض الدراسة:

يشكل ابن النفيس قضية بين الشرق العربي والغرب الأوربي، إذ اقتبس عنه الغرب وأغفله، وتناساه أهل الشرق، حتى أعيد الاهتمام إليه في عشرينيات القرن الماضي. ويرتبط ذكره باكتشاف الدورة الدموية الصغرى حصرا. ولكن الإمعان في شروحه وتأليفه يقودنا إلى دراسته كظاهرة حدثت نتيجة عوامل متعددة؛ اجتماعية وسياسية وعلمية. وتظهر أهمية هذه الدراسة من خلال تصديها للإجابة على الأسئلة التالية:

كيف صار ابن النفيس إلى ما صار إليه؟ وما هي الخلفيات المؤثرة على تنشئته؟

ما هي حقيقة علمه واكتشافاته؟

هل كان مبدعا في مجال الطب؟

ما هي إسهاماته الطبية وأثرها على تطور العلوم الطبية؟

ما هي إنجازاته الأخرى؟

مصادر الدراسة:

تتكون مصادر الدراسة من مراجعة الممكن من آثاره العلمية ومؤلفاته، والدراسات الحديثة عنه، والتي أجراها المؤرخون العرب خلال القرن الماضي وما أقره المستشرقون بشكل مواز في العصر ذاته. وتتكون تلك المصادر أيضا من رصد ما كتب عنه وتناول تاريخه حديثا.

مبررات الدراسة:

درست مجموعة من علماء التاريخ الطبي والأطباء والمستشرقين تاريخه بصورة مكثفة منذ عشرينيات القرن الماضي. وكانت حياته ومؤلفاته مادة

http://kotob.has.it

لندوات متخصصة. ويبدو أن الصورة النهائية لم تكتمل بعد. وربما لن تكتمل حتى يصار إلى تحقيق كل ما يمكن الوصول إليه من أعماله ومخطوطاته الباقية والمنتشرة في مكتبات العالم. ربما أن ما كتبه الآخرون في مخطوطاتهم ومؤلفاتهم سيعزز صورته. وسيسهل ذلك إعادة صياغة مجمل تاريخه إلى أقرب حد من الحقيقة.

ونبرر تناولنا لهذا الموضوع برغبتنا الجامحة لتنقية وتجميع نتائج البحوث السابقة، ووضعها في نسق علمي محدد ومكثف، يتجنب الإطناب والإطالة، ووضع إطار عام للبحث لاكتشاف النقاط التي لم تتح بعد فرصة الإجابة عنها.

ونزعم أن «ابن النفيس» ليس ظاهرة شاذة طفرت في المجتمع الإسلامي، ولكنه ظاهرة طبيعية ناجمة عن مقدمات اجتماعية وعلمية تعكس واقع التطور العلمي والثقافي الذي أنجبه. ومن ذلك يصبح إثبات ذلك ممكنا من خلال دراسة العصر الذي عاش فيه، و كذلك من دراسة العصر الذي سبقه وأدى إليه. كذلك من خلال دراسة مدى تأثره بمن سبقه ومدى تأثيره فيمن لحق به. ومن متطلبات ذلك استرجاع المفاهيم المعتمدة الموثقة عن مجمل الطب الإسلامي و حصر إنتاج ابن النفيس العلمي. ثم توضيح خصائص منهجه العلمي. ثم الحكم على ما جاء فيه: له أو عليه. وإذا تم ذلك يمكن التعرف ما إذا كان له فضل أم لا وما مدى أهمية ذلك على مخزون الإنسانية المعرفي.

طريقة البحث:

تعتمد خطة العمل تناولا نقديا لمن سبقه في مجاله للوقوف على الحقيقة المعتبرة. وتهذيب النتائج السابقة للبحوث التي دارت حول هذا العالم وربطها بسياق التاريخ الطبي الحديث. وتعتمد أيضا ما جاء في كتب المؤرخين الملمين أصحاب التراجم وطبقات الأطباء والحكماء أمثال ابن أبي أصيبعة والقفطي

http://kotob.has.it

وهي مصادر موثوقة أساسية. وكتب من ذكروا تراجم بعض أعلام الأطباء ابن خلكان والبهيقي. كذلك استقصاء ما كتب في المراجع العربية والأجنبية، عنه سواء كانت كتبت تاريخية أو أدبية. كذلك متابعة أبرز المجلات والمحاضرات في الندوات الهامة ، وما طبع في «الإنترنت».

وينقسم العمل إلى:

مدخل يضع خلفية تاريخية ـ ثم ترجمة وتعريف به، وتعريف بعصره ثم حصر ما اجتمع العلماء على ذكره من مؤلفاته وتصنيفها حسب اختصاصاته.

وإذا ذكرنا ذلك أثبتنا ما نجد من ثابت إنجازاته ويختم ذلك بنقاش النتائج النقدي.

*****

http://kotob.has.it

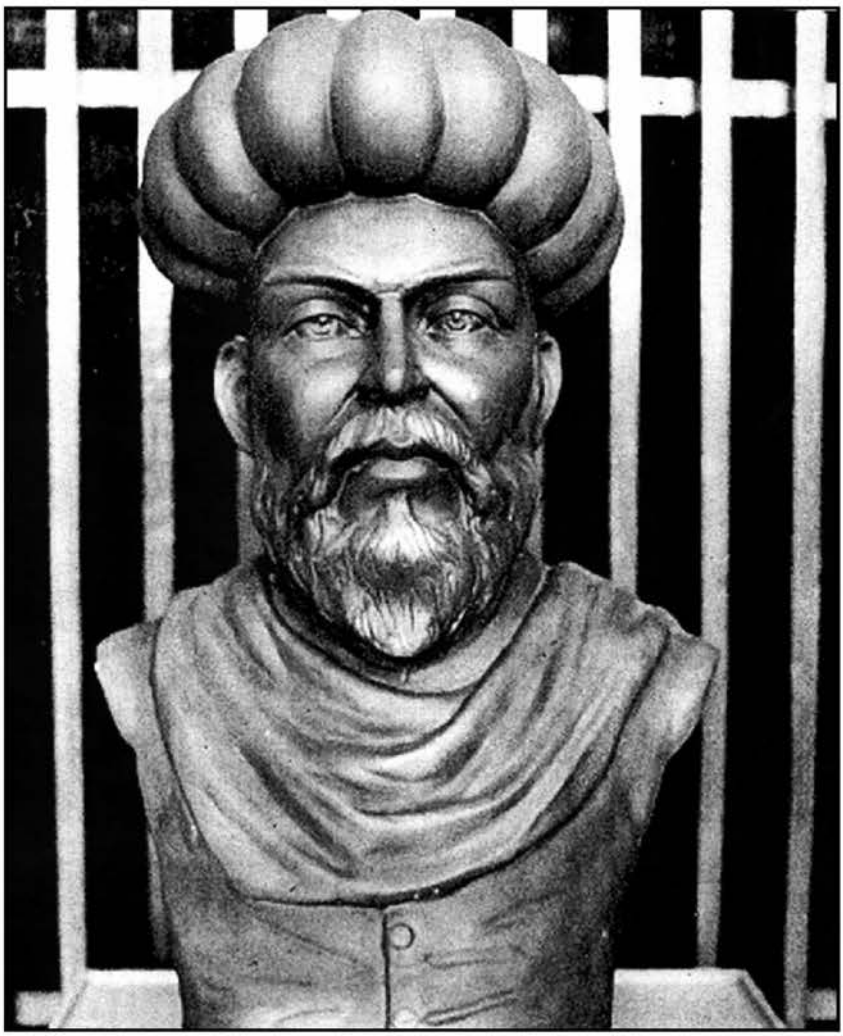

صورة ابن النفيس عن تمثاله في الهند

http://kotob.has.it

الفصل الأول

ترجمة حياة ابن النفيس

من هو ابن النفيس؟:

هو الشيخ الطبيب، علاء الدين علي بن أبي الحزم[١] القرشي [٢] الدمشقي [٣] المصري [٤] الشافعي، المعروف بابن النفيس الحكيم، صاحب التصانيف الفائقة في علم الطب. حسب ما ورد في المصادر التاريخية[٥،٦].

وجاء في بعض هذه المصادر أنه يسمى (ابن أبي الحرم). ووثق يوسف زيدان ذلك اعتمادا على مخطوطة شرح القانون، التي تنسب لمعاصره الحسن ابن علي السنجاري الطبي ومن هذه المصادر: (البداية والنهاية). (وشذرات الذهب)، و(طبقات الشافعية الكبرى). وقد ناقش بول غليونجي هذه النقطة، في كتابه عن ابن النفيس [٧] وسواء كان اسمه ابن أبى الحزم أو الحرم فليس من فائدة تجنى من تغيير اسم سرى في المخطوطات التاريخية واستأنسه الناس.

وأول ذكر للقبه «ابن النفيس» جاء في كتاب تاريخ الإسلام للمؤلف شمس الدين الذهبي (م ٧٤٧ هـ) أما لقب (القرشي) فهو على مايبدو نسبة إلى

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ـ الجزء الثالث عشر ص٣١٣ .
(٢) ابن العماد، شنررات الذهب في أخبار من الذهب ـ الجزء الخامس، ص٤٠١ .
(٣) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ الجزء السابع، ص٣٧٧ .
(٤) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ـ الجزء الخامس ص١٢٩ .
(٥) عمر كحالة، معجم المؤلفين ـ الجزء السابع ص٥٨ .
(٦) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ الجزء الأول ص٣٢٩ .
(٧) بول غليونجي ـ ابن النفيس ص ٧٦ .

http://kotob.has.it

القرش ـ بفتحتين ـ «وهي قرية قرب الشام في ذلك الوقت»، وذلك ما ذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عند ترجمته لابن النفيس الواردة في مخطوطة مكتبة الظاهرية في دمشق[٨] والتي يشكك فيها بعض الباحثين[٩]. وإذا صح ذلك فالقرية أصبحت، مع امتداد مدينة دمشق جزءا من حي الميدان جنوبها.

حياة ابن النفيس:

عاش ابن النفيس الشطر الأول من حياته بدمشق ـ التي يرجح أنه ولد بها سنة ٦٠٧هـ تقريباً ـ إذ لا يعرف تاريخ ولادته بالتحديد، وإنما يستنبطه المؤرخون بالرجوع لتاريخ وفاته ومن قراءتهم لعمره المذكور في كتب السيرة

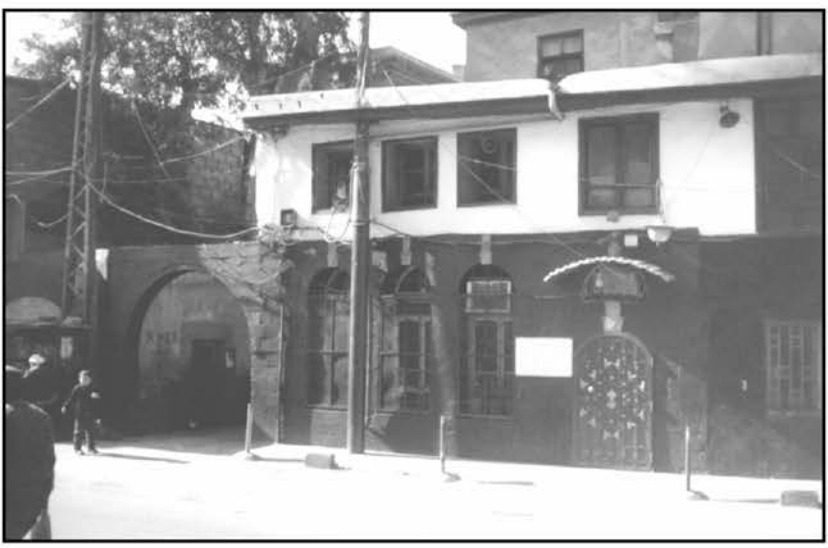

زقاق القرشي في حي الميدان جنوب مدينة دمشق ويظهر المدخل

(٨) سامي حمارنه ـ مقدمة فهرس مخطوطات الظاهرية.

(٩) بول غليونجي ـ ابن النفيس ص٧٢ ـ ٧٥ .

http://kotob.has.it

مستشفى قلاوون في القاهرة حيث البيمارستان الناصري

فيحددونه بتاريخ ٦٠٧ هـ. و ابتدأ بدراسة الطب عام ٦٢٩ هـ على يد الأطباء بديار الشام، ابتداء بالمدرسة الداخورية التي اسسها الشيخ عبد الرحمن بن علي، المعروف بمهذب الدين الدخوّار (المتوفى عام ٦٢٨هـ) وكان الدخوّار قبل وفاته يعمل بالبيمارستان النوري بدمشق[١٠]. ويعتقد أنه ابتدأ تعلم الطب بعد سنة من وفاة الدخوار «أي في سنة ٦٢٩ هـ». ويحكي ابن النفيس قصة اشتغاله في الطب في مخطوطته شرح كليات القانون: «... كان قد عرض لنا حميات مختلفة. وكان سننا في ذلك الزمان قريبا من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عوفينا من تلك المرضة، حملنا سوء ظننا بأولئك الأطباء (يقصد الذين عالجوه) على الاشتغال بصناعة الطب، لينتفع بها الناس..» ومع ذلك يتحدث معظم المؤرخين عن أنه تتلمذ على الدخوار. إلا أنه لم يذكر عنه أي ذكر فيما وصل إلينا من مؤلفاته. كما أن كليهما شرحا على كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط ورغم ذلك لا يرجع إلى ذلك. ويرجح أنه تتلمذ على يد عمران الإسرائيلي (المتوفى عام ٦٣٧هـ)، زميل مهذب الدين الدخوّار وخليفته في

(١٠) من تلامذة الدخوار ـ ابن أبي أصيبعة أيضاً وبدر الدين مظفر بن قاضي بعلبك.

http://kotob.has.it

البيمارستان النوري وغيره من أطباء الشام آنذاك. وما لبث ابن النفيس أن رحل من الشام إلى مصر في ثلاثينيات عمره عام ٦٣٦ هـ، فاستقر به المقام في القاهرة وعمل كحالا في أكبر مستشفياتها وهو (البيمارستان الناصري). ثم تولى رئاسة البيمارستان المنصوري. المسمى بذلك نسبة للملك الذي بناه المنصور سيف الدين قلاوون. وفي القاهرة، نال ابن النفيس شهرة عظيمة كطبيب، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه لم يكن في الطب على وجه الأرض مثله، ولا جاء من بعد ابن سينا مثله، وكان في العلاج أعظم من ابن سينا.[١١] وبلغ ابن النفيس من العمر قرابة الثمانين عاماً. وتوفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٧هـ بالقاهرة، بعد مرض دام ستة أيام. وقد أشار عليه بعض زملائه الأطباء في مرضه الذي توفى به بأن علاجه يستلزم تناول شيء من الخمر فرفض، وقال: «... لا ألقى الله تعالى و في باطني شيء من الخمر».

مسجد قلاوون بالقاهرة قرب البيمارستان الناصري

(١١) ابن العماد والسبكي.

http://kotob.has.it

وترك ابن النفيس مالاً كثيراً، لكنه أوقف ماله وداره وأملاكه وجميع ما يتعلق به، على البيمارستان المنصوري بالقاهرة. ويرجح سبب ذلك كونه وحيدا في ذلك الوقت؛ فمن المؤرخين مثل ابن فضل العمري من يرى أنه لم يكن «مزوجا» وربما قصده عدم زواجه في الفترة التي سبقت وفاته. ومنهم من يرى أنه تزوج وكان له ابن كما ورد في وصفه لكيفية العناية بالطفل الرضيع في شرحه على كليات القانون والذي وضعه قبل ٦٤١ هـ حينما كان في ثلاثينيات عمره. فهو يشرح تفصيلا فيما يجب عمله للطفل من قماط و أغطية وتدليل وتحريك وهدهدة بالموسيقى. فيسرد: «وهذا ولدي محمد في زمن طفولته، ارتضع من والدته عقب أكلها بصلة، لعلها لم تكن قد استقرت في معدتها. فترك الثدي في الحال واستكرهه. فعلمت أنه أدرك منها رائحة البصل».

قال صديقه أبو الفتح يوحنا ابن موهوب في رثائه:

ومسائلي، هل عالم أو فاضل أو ذو محل في العُلي بعد العَلا

فأجبت والنيران تضرم في الحشا أقصر فمذ مات العَلا مات العُلا

صفات ابن النفيس:

كل ما كتب عن ابن النفيس يمتدح صفاته الشخصية وعلمه وعمله. فمن هو ابن النفيس في عيون معاصريه ومن اطلع على أعماله؟: ويدل على سعة علمه وتمكنه ما حكاه تلميذه السيد الدمياطي الحكيم قال: اجتمع ليلة ابن ألفي وجمال الدين بن واصل وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم والشيخ علاء الدين ابن النفيس يبحث برياضة وبلا انزعاج، وأما القاضي فإنه ينزعج ويعلو صوته

http://kotob.has.it

وتحمر عيناه وتنتفخ عروق رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين بن واصل: يا شيخ علاء الدين أما نحن فعندنا مسائل ونكت وقواعد وأما أنت فعندك خزائن علوم.

كما يدل على سعة علمه ما ورد في ترجمة ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة إذ فقال: الشيخ الطبيب علاء الدين المعروف بابن النفيس الحكيم الفاضل العلامة في فنه لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج، وانتهت إليه رياسة فنه في زمانه وهو صاحب التصانيف المفيدة.

ويدل على تقدمه في العلوم الفلسفية، ما يقوله الصفدي ـ كما نقل عنه العمري في مسالك الأبصار في معرض كلامه على مؤلف ابن النفيس في السيرة النبوية المسماة بالرسالة الكاملية التي عارض بها رسالة ابن سينا «حي بن يقظان»، وانتصر لمذهب الإسلام وأهله وآرائهم في النبوات والشرائع. ولقد أبدع فيه ودل على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية.

عصر ابن النفيس:

أثرت البيئة التي عاش فيها ابن النفيس والعصر الذي نشأ وترعرع فيه أثرا كبيرا في تكوين شخصيته. و يمكن تقسيم القرن السابع الهجري الذي وجد فيه ابن النفيس إلى قسمين: قسم النصف الأول منه وهو عصر ازدهار اقتصادي وثقافي، إذ كان الحكام يعتنون بالتجارة عناية فائقة ويقومون بتسيير الطرق البرية والبحرية وبحمايتها من اللصوص والنهب، وازدهرت مراكز تجارية هامة وأسواق نشطة في بغداد ودمشق والكوفة والبصرة وطرابلس والفسطاط والإسكندرية وغيرها من المدن الإسلامية، وكانت العملة السائدة هي الدنانير والذهب. وكانت الحال بالنسبة للزراعة والصناعة، فقد اهتم

http://kotob.has.it

الحكام في هذا العصر بصناعة السفن والمعادن فاستخرجوا النحاس والحديد وانتشرت مصانع السكر والعسل والزيت والصابون والشمع والزجاج وغيرها.

وأما الثقافة فقد كانت من النصف الأول من ذلك القرن مزدهرة ولا تزال الحضارة الإسلامية شامخة والعلوم والفنون في توسع ونمو. وكان لانتشار المدارس والمكتبات دور بارز في نشر العلم والمعارف وكان اهتمام الخلفاء والوزراء والسلاطين بنشر العلم وإنشاء المدارس كبيرا: فقد أنشأ الأيوبيون إبان حكمهم خمسا وعشرين مدرسة، وأنشأ المماليك بعدهم نحو خمس وأربعين مدرسة، ومن أبرز هذه المدارس: المدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة العباسي في بغداد سنة ٦٣١هـ والمدرسية الكاملية التي أسسها الملك الكامل الأيوبي سنة ٦٢١هـ، والمدرسة الصالحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين الأيوبي سنة ٦٣٩هـ، والمدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ والمدرسة المنصورية التي أنشأها الملك قلاوون سنة ٦٧٩هـ، وكانت تدرس في هذه المدارس العلوم الشرعية والعربية وكان بعضها يتبعها مستشفى لتعليم الطب. ولا شك أن هذا الاهتمام دفع الحركة العلمية ويسر لطلاب العلم التزود من العلوم والمعارف.

في ذلك العصر حدث «سقوط بغداد» عاصمة الخلافة، وعاث التتار في الأرض الفساد ودمروا بغداد وقتلوا المسلمين وحمل النهران دماء السكان وتم إتلاف و إحراق الكتب والمكتبات وقتلهم العلماء ولم يجد من عاش من العلماء والمشايخ والأطباء بلدا تطيب له به الحياة ويشعر بالاطمئنان فيه والعمل بحرية غير مصر، فصارت محط أنظارهم ورحالهم. وأدركوا خطورة الموقف إزاء التدمير الذي ألحقه التتار بالمكتبات، فشمروا عن سواعد الجد وأخذوا

http://kotob.has.it

يحفظون كتب من سبقهم ويخدمونها بالاختصار والشرح والتعليق والنظم. فحفظوا لنا تراثهم. وأضافوا إليه من ابتكار وتجديد. لذلك ازدهرت الحركة العلمية في عصر المماليك ازدهارا واسعا ووجد العلماء مطلبهم فأخذوا يتجهون نحو التأليف والتعليم في مختلف العلوم من شرعية وعقلية وعلوم اللغة ونتيجة لهذه الجهود المكثفة فإنه ما كاد هذا القرن ينتهي حتى عادت النهضة أحسن مما كانت عليه في بدايته وعاد للنهضة العلمية نشاطها وقوتها وحيويتها فكانت تجرى محاورات علمية ومناظرات قيمة بين كبار العلماء وقد يحضرها الولاة والأمراء وكان أكثر العلماء في هذا العصر يتبحرون في أكثر من علم وتراهم يؤلفون في أكثر من فن فتجد الواحد منهم يؤلف في العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث وفلسفة ولهذا لا يشعر بالإستغراب إذا وجدنا عالما كابن النفيس يتعد نشاطه أكثر من جهة ويكتب ويؤلف في أكثر من فن.

ولكن ما هو الدافع الذي دفع بابن النفيس إلى الطب وممارسته والنبوغ فيه بعدما كبر وقضى من العلوم الشرعية والعقلية واللغوية نهمه وصار يقوم بالتأليف والتعليم فيها. إن السبب يمكن إرجاعه إلى أمرين:

أحدهما: أن هذا العصر كان عصر ازدهار الطب في مصر والشام فقد ورث الأيوبيون والمماليك النهضة الحضارية عن العصر الفاطمي ونبغ الكثيرون من الأطباء وبخاصة في القاهرة ودمشق، وكان من مظاهرها إنشاء البيمارستانات، وكان في دمشق عند نشأة ابن النفيس نخبة ممتازة من الأطباء من بينهم (الرحبي رضي الدين) (ت: ٦٣٠هـ) صاحب كتاب «خلق الإنسان وهيئة أعضائه» وتلميذه الدخوار (مهذب الدين عبد الرحيم بن علي) (ت: ٥٦٥ ـ ٦٢٨هـ) الذي انتهت إليه صناعة الطب في زمانه وولاه السلطان الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين رئاسة أطباء مصر والشام، ونبغ

http://kotob.has.it

في الشام أيضا عمران الإسرائيلي الذي كان يزاول مع الداخور العمل في البيمارستان النوري (٥٦١ ـ ٦٣٧هـ) وكان من أبرع أطباء عصره ـ تعلم ابن النفيس الطب على كبر على يد هؤلاء الفحول من الأطباء ومارسه تحت إشرافهم في البيمارستان النوري ثم انتقل إلى مصر هو وبعض معاصريه من بينهم زميله (ابن أبي أصيبعة) وفي القاهرة عمل في البيمارستان الناصري الذي كان أنشأه صلاح الدين، واستمر يعمل فيه حتى أسس ابن قلاوون البيمارستان المنصوري سنة ٦٨٢هـ، وأسند إليه ابن قلاوون رياسة هذا البيمارستان، وعاصر ابن النفيس في مصر الكثيرين من الأطباء المشهورين ابن البيطار (أبو محمد ضياء الدين عبد الله) و(كوهين العطار) و(سديد الدين أبي الفضل داود بن سليمان بن إسرائيل) (٥٦٦ ـ٦٣٦هـ)، كما عاصر ابن النفيس في القاهرة أيضا من أصدقائه وزملائه الكثيرين من الأطباء النابهين مثل المهذب (رشيد الدين بن أبي حليقة) و(شرف الدين بن صغير).

والآخر: يرجع إلى الحروب والكوارث التي ابتليت بها البلاد الإسلامية على أيدي الصليبيين في مصر والشام وعلى أيدي المغول في شرق البلاد الإسلامية، وكانت تلك الحروب والكوارث سببا في دفع الأمراء إلى إنشاء المستشفيات لعلاج الجرحى والمصابين وإلى إنشاء المدارس لتعليم الطب وإقبال العلماء على تعلم الطب وتعاطيه، ولعل هذا يوقفنا على تحسس ابن النفيس لخطورة الوضع العام الذي وصل إليه العالم الإسلامي في هذه الفترة فجعله يقبل على تعلم الطب والانقطاع له كما جعله يغير موقفه تجاه السلاطين ويخالف العز بن عبدالسلام (سلطان العلماء) في موقفه المتشدد معهم، ويرى في السلطان أن يكون شجاعا قويا، وجريئا مقداما وأحيانا قاسيا مسرفا في العقوبات ليتمكن من اجتثاث الشرور، ولابد أن يكون له جيش قوي

http://kotob.has.it

كثير العدد حتى يتمكن من مغالبة أعدائه، وهذا يستدعي توفير الأموال الكثيرة اللازمة لتغطية نفقات الجيوش، وكأنه بهذه المبادئ التي يقررها في الرسالة الكاملية يرد على المواقف المتشددة التي كان يبديها العز بن عبدالسلام قبل حكام عصره وتصديه لهم في جمع المال من الناس وفتواه: بأنه لا يجوز لهم أن يجمعوا المال من الناس إلا إذا نفذ كل ما هو موجود في بيت المال، وأن يبيع الأمراء كل ما يملكون من آلات الزينة الذهبية التي يزينون بها أنفسهم وآلاتهم وخيولهم ويقتصر كل واحد منهم على ما يلزمه من صلاح وما يركب من دابة، وكذلك موقفه من مبايعة الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ نجد موقف ابن النفيس متغايرا بل على طرفي نقيض مع معاصره العز بن عبدالسلام.

*****

http://kotob.has.it

الفصل الثاني

الخلفية العلمية والتاريخية التي ارتكز عليها تكوين ابن النفيس

١. الاتصال مع الحضارة اليونانية والطب العربي الاسلامي

الترجمة الطبية

ترجمة كتب التراث اليوناني:

مساهمة مترجمي كتب التراث اليوناني في بناء الطب العربي الإسلامي كانت الصلة التي وصلت العالم بالتراث الطبي الإنساني الذي صهر مفاهيم الطب والتطبب منذ بزوغ الحضارات حتى يومنا، وذلك للارتباط الوثيق الذي كان بين هذا التراث وبين دراسة الطب، بعده أصبحت الكتب الطبية بين أيدي الأطباء باللغة العربية.

ومن أول المترجمين الحرفيين كان حنين بن إسحاق العبادي (١٩٢ ـ ٢٦٠هـ/٨٠٨ ٨٧٣م) [١] الذي كان طبيبا ماهرا، يمارس مهنته بنجاح. إلا أن بعض مؤلفاته ـ مثل كتاب (المسائل في الطب) وكتاب (في معرفة أوجاع المعدة وعلاجها) ـ يعوزها أصالة البحث والتأليف. وكان حنين أولا وقبل كل شيء مترجما ممتازا. ويعتقد أنه لو لا إسهامه في الترجمة لكان سجلّ تاريخ الطب العربي مختلفا تمام الاختلاف عما هو عليه الآن. فساعدت إجادته للغات اليونانية والسريانية والعربية من ترجمة أغلب كتب القدامى في الطب

(١) البير اسكندر تطور جديد في مناهج تعليم الطب العربي في عصر ابن النفيس، محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس ١٥ بحثاً في الفلك والطب والعلوم ٥ ـ ٨ / ١٠ / ١٩٨٧ في الجامعة الأردنية ـ دار الفكر دمشق سوريا ١٩٩١م.

http://kotob.has.it

والفلسفة إلى اللغات السريانية ثم العربية. فأكب معاصروه من أهل العلم على دراستها بشغف كبير. كما درسها من جاء بعدهم من الأطباء بقرون مديدة ويدرسها مؤرخو الطب بدقة حتى يومنا هذا.

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أمر الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م) بإنشاء مدرسة للترجمة في بغداد التي أطلق عليها اسم (بيت الحكمة). وعهد إلى حنين بن إسحاق أمر رئاسة هذه المدرسة.

ولم يكن حنين قد ناهز السابعة عشرة من عمره بعد، حينما ترجم أول كتاب في الطب، وهو كتاب (في أصناف الحمّيات) لجالينوس. ترجمه من اليونانية إلى السريانية، ثم أعاد ترجمته فيما بعد حينما ظهر له أن ترجمته الأولى اعتمدت على مخطوط يوناني به خرم. وأتم حنين ترجمة الكتاب الثاني من كتب جالينوس (في القوى الطبيعية) حينما أكمل سن السابعة عشرة. وأعاد ترجمة هذا الكتاب أيضا مرتين أخريين لاكتشافه مخطوطات يونانية أدق وأكمل، وذلك قبل أن يترجمه إلى اللغة العربية وبذلك جاءت ترجمته العربية دقيقة. ويتضح دور حنين وزملائه في الترجمة جليّا كوسطاء بين جالينوس من جهة وبين الأطباء السريان والأطباء العرب من جهة أخرى، من مؤلّفه المعروف (رسالة حنين بن إسحاق إلى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم). ألّف حنين هذه الرسالة وهو في سن الثامنة والأربعين، ثم أضاف إلى النص زيادات بعد ثماني سنوات. ويذكر حنين في هذه الرسالة مائة وتسعة وعشرين كتابا من كتب جالينوس، ترجم حنين منها حوالي تسعين كتابا من اليونانية إلى السريانية، حوالي أربعين كتابا إلى اللغة العربية، وذلك عدا مراجعته الدقيقة للكتب الكثيرة التي ترجمها مساعدوه. وكان يترجم أولا من اليونانية إلى السريانية أطباء مسيحيون ثم من السريانية إلى العربية استجابة لطلب أطباء مسلمين.

http://kotob.has.it

وفي بدء الأمر كان يدوّن كتبه المترجمة بخطه، ولما اتسعت دائرة أعماله بعد ذلك اختار ناسخين ليعاوناه في عمله المرهق: وهما الأحول والأزرق. وكان الأزرق يدوّن بخط كوفي واضح، تاركا مسافة كبيرة بين كل سطرين، على ورق سميك كبير الحجم جدا. وبقي الكثير من هذه النسخ المخطوطة حتى وقت المؤرخ الطبيب والعالم الكبير ابن أبي أصيبعة (توفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) الذي يذكّر بأن حنينا كان يتقاضي أجره ذهبا وزنا بوزن لهذه المخطوطات الثمينة. ويذكر انه أدخل تعبيرات ومصطلحات طبيّة لا تزل مدرجة حتى الآن في كتب الطب العربية. أضف إلى ذلك أنه حفظ لنا من الضياع - في ترجمته العربية الدقيقة - كتبا كثيرة قد فقدت أصولها اليونانية. ويذكر على سبيل المثال من هذه كتابين للطبيب روفس الإفيسي (من أطباء القرن الأول الميلادي) أحدهما (في المالنخوليا) والآخر (في الصفراء). وكذلك كتاب جالينوس المسمى (في عمل التشريح) الذي فقد من نصوصه اليونانية بعض الجزء التاسع ثم جميع الأجزاء التي تليه من العاشر إلى الخامس عشر. كما حفظ حنين من الضياع كتابا آخر لجالينوس عنوانه (في المحنة التي يعرف بها أفاضل الأطباء) وهو حقا من الكتب الممتعة.

ومن مساعدي حنين في مدرسة الترجمة ابنه إسحاق بن حنين (توفي سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م). وكان مترجما ومراجعا لعلم زملائه في مدرسة الترجمة، كما ترجم الكثير من كتب الطب والفلسفة اليونانية إلى السريانية والعربية. وكان تخصصه في ترجمة كتب الفلسفة. ثم ابن أخيه حبيش بن الحسن الأعثم الذي كان يترجم كتب الطب من السريانية إلى العربية أو العكس. ويبدو أنه لم تكن له دراية باللغة اليونانية ومن المترجمين اللامعين في مدرسة الترجمة أيضا عيسى بن يحيى. وكان مثل حبيش بن الحسن يترجم كتب

http://kotob.has.it

الطب من السريانية إلى العربية أو العكس. وأخيرا اصطفان بن باسيل، ويكفيه فخرا أنه ترجم كتاب (الحشائش) لديسقوريدس من اليونانية إلى العربية، بالإضافة إلى ترجمة الكثير من كتب الطب.

٢- التشريح في التراث الطبي وتأثير جالينوس فيه

مدرسة الإسكندرية

أسس البطالسة مدرسة الإسكندرية بعد فتح الاسكندر المقدوني لمصر. وكان ذلك حوالي العام ٣٢٠ قبل الميلاد. وكانت من أهم المراكز في العلوم ولاسيما الطبية واستمرت خلال الفترة الهلنستية التي سادت سورية ومصر من ٣٣٠-٣٠ قبل الميلاد، ويمددها بعض المؤرخين إلى عام ٤٥٠ بعد الميلاد. وبرزت شهرتها بالمكتبة الكبيرة[٢] وامتزاج الطب المصري القديم بالإغريقي. ومن أشهر أطبائها «هيروفيلوس» الذي كان أول من شرح جثة الإنسان علنا. و«ارسيطراطيس» الذي اهتم بوصف وظائف الأعضاء. كان البطالسة ونظرا لاهتمامهم بالطب، يقدمون لمدرسة الطب بعض المجرمين للتشريح. إذ كان التشريح,في مرحلة من مراحل تاريخ المدينة، يجري على المجرمين الأحياء. ويذكر أن جالينوس وصل إلى الإسكندرية وقد بطلت هذه العادة وكان يلجأ لتشريح القردة والقياس على الإنسان مما أوقعه في الأخطاء العلمية والتي استمرت بعده. وتأثر «يوليوس قيصر» بما شاهده عندما كان بجوار «كليوباترا» في الإسكندرية ورحب بأطبائها في روما. غير أن الرومان بشكل عام لم يعتنوا بها عندما انتقل المركز الحضاري إلى روما. ففقدت مكانتها نتيجة تأخر الحركة العلمية بها. وتراجعت شهرتها مع ظهور «جالينوس» في

(٢) اعيد بناؤها حديثاً وافتتحت ٢٠٠٢م.

http://kotob.has.it

القرن الثالث الميلادي. وأدي النزاع العقائدي بين النصارى والعلماء اليونانيين الوثنيين إلى خمول المدرسة في مجال البحث والتأليف والتدريس. وانتهت المدرسة عند نهبها وحرقها سنة ٣٦٦ حين آل الحكم إلى الأباطرة البيزنطيين. ومن أهم اتباع تلك المدرسة بين القرنين الخامس والسابع الميلادي: «سرجيوس الراسعيني» و«شمعون الراهب» و «طيسماوس الطرسوسي» و«مغنس الاسكندري» و«ديسوقريدس الكحال» و«أورباسيوس» و«أهرون بن أعين» القس السكندري و «فيغوريوس» و «أتيوس الأمدي» و«بولس الأجنيطي» و«أبو موسى عيسى بن قسطنطين». وترجم العرب كتب الطب السبعة للأجنيطي والكناش لأهرون بن أعين.

دخل الإسلام مصر بفتح «عمرو بن العاص» لها في السنة السادسة عشرة للهجرة. وساد فيها مفهوم الطب الإسلامي بجانب مورثها من الحضارات المتعاقبة عليها. وساهمت أيضا في تكوين الفكر الطبي الإسلامي بأطبائها ومن قدموا إليها من بقاع العالم الإسلامي. وكانت فيما بعد مركز إشعاع علمي. تقدم الطب المؤسس على الترجمة من طب اليونان وطب المصريين وخاصة طب الاسكندرانيين.

ويتلخص العمل الجراحي العلاجي في العهد الإسلامي بتطوير الجراحة واستخدام الأمزجة المسكنة النباتية في التحضير للجراحة. وعلى مر السنين تطورت الجراحة إلى أوجها في جهد أبو القاسم الزهراوي في الأندلس. وقد نقل المسلمون المعرفة الطبية من الأمم السابقة في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. وذكر الأطباء المسلمون في كتاباتهم الطبية جراحات مختلفة. ويتراوح مدى ممارستهم للجراحة باختلاف العصر. فلو أن الرازي وابن سينا ذكرا الجراحة فلم يكنا جراحين، وانما يقوم بالجراحة من هم مختصون بـ

http://kotob.has.it

«صناعة اليد». وإذا ذكر الزهراوي وابن القف الجراحة فقد كانا جراحين. ومن الجراحة الموصوفة في كتبهم ما هو لعلاج الزوائد والكسور والنزوف والأورام واخراج الحصا من المثانة وعلاج العيوب الخلقية التي تخضع للعلاج. وذكروا تنبيب وخزع الرغامى في انسداد المجرى الهوائي. وذكرت إجراءات جراحية متفاوتة في كتب كل من: ابن سينا و أبو بكر الرازي وعلي بن عباس وأبو القاسم الزهراوي وموفق الدين «ابن القف» والبغدادي والسمرقندي وابن الجزار وغيرهم. منها العناية بكسور الجمجمة وأمراض الأنف والحنجرة والأذن والعيون و الختان وجراحة الأطفال والتجميل وتدبير الحوامل.

أما فيما يختص بالتخدير فان كتبهم تذكر استعمال المسكنات والمخدرات للتمكين من الجراحة وذلك باستعمال الأمزجة المسكنة و ربما الأسفنجه المرقدة.

وذكر عنهم استعمال الكحول لتنظيف الجروح. والكي لإيقاف النزيف وعلاج بعض القرحات. واستعملوا الخيوط الجراحية وما يتعلق بذلك. كما أنهم استخدموا القثاطير الذهبية والفضية والنحاسية. كما ورد ذكر استعمال المنفاخ لإنعاش التنفس لمريض يبدو ميتا.

كيف وصل حال علم التشريح إلى العرب ومدى تأثره بجالينوس؟:

كانت مدرسة الإسكندرية القديمة في عصر بطلميوس مركزا مرموقا للتعليم وما يتطلبه ذلك من بحوث طبية تجريبية. واشتهر فيها أساطين علمي التشريح ووظائف الأعضاء مثل هيروفيلس (حوالي سنة ٣٢٥ ـ ٢٨٠ ق. م) وأرسطوطالس (حوالي سنة ٣١٠ ـ ٢٥٠ ق. م). وكان جالينوس (حوالي سنة ١٣٠ ـ ٢٠٠م) من بين دارسي علم التشريح في مدرسة الإسكندرية التي اختصها بالتقدير، وأوصى تلاميذه بضرورة تلقي العلم فيها. يقول في المقالة الأولى من كتابه الكبير (في عمل التشريح) ما هذا نصه: «فليعنك الآن أمر

http://kotob.has.it

العظام، وأحرص ألاّ تقتصر على أن تتعلم ذلك من كتاب فقط. لكن تنظر إلى خلقة واحد من عظام الناس بنفسك، وتستقصي ذلك، وهذا أمر يسهل جدا في بلاد إسكندرية، ولذلك صار أطباؤها هناك ـ إذا علّموا تلاميذهم أمر العظام ـ جعلوا تعليمهم إيّاهم مع توقيفهم عليها بالعيان. وينبغي لك أن تحرض على الذهاب إلى إسكندرية لو لم يكن لشيء آخر لكان لهذه الحصيلة وحدها .....».

شرح جالينوس حيوانات حية مثل القردة وإناث الخنازير والنعجات العشار. وفحص مع تلاميذه القلوب النابضة للحيوانات الحية. كما شرّح القطط والفئران والأفاعي والكثير من أنواع الطيور والأسماك. ولكنه لم يشرّح الحيوانات الدقيقة الحجم. ودعا تلاميذه للاشتراك في تشريح جثة فيل مدينة رومية حتى يتحقق التلاميذ من وظيفة خرطوم الفيل في عملية التنفس. وأوصى بتشريح الجثث الآدمية ولكنه رأي أن يبدأ طلاب الطب بتشريح القردة، فإذا ما أتقنوا ذلك فليمارسوا تشريح جثث الإنسان. وفي كتابه (في عمل التشريح) يقول: «وقوم كثير أيضا شرّحوا مرارا كثيرة أطفالا أسقاطا فاستقر عندهم أن هيئة الإنسان كهيئة بدن القرد».

ويقول مؤرخو الطب إن الأطباء في عصر جالينوس امتنعوا عن تشريح جثث الإنسان، وقد يكون ذلك لأسباب دينية أو اجتماعية كما اسلفنا، إلا أن قول جالينوس في هذا الصدد يفيد بأن بشريح جثث الإنسان لم يكن ممنوعا بحكم القانون.

ولجالينوس في التشريح ما لا يقل عن أربعة عشر كتابا ومقالة[١٠]، منها (واحد في تشريح الحيوان الحي) وآخر (في تشريح الحيوان الميت).

http://kotob.has.it

يقول جالينوس إن ممارسة التشريح إلى حد الإتقان تنير الطريق للطبيب في تشخيص أمراض الأعضاء الباطنة تشخيصا صحيحا. ويوصى في كتابيه (في التشريح و(في منافع الأعضاء) بضرورة دراسة التشريح علما وعملا، كما ينتقد جالينوس كتب أرسطراطس التي ألّفها في بدء حياته العلمية، وذلك لأنها كانت مليئة بالأخطاء فيما يتعلق بالمنبت الأصلي للأعصاب. ويذكر أن أرسطراطس صحح أخطاءه بنفسه وأيقن أن الدماغ هو اصل منبت الأعصاب، وذلك بعد أن مارس التشريح عمليا. ويقول جالينوس إنه من المحتمل أن يبتر بعض الأطباء الذي لم يمارسوا التشريح أعصاباً غير ظاهرة عن غير وعي أثناء إجراء العمليات الجراحية. ومهما بلغ جهل الأطباء فإنهم لا يبترون العصب التائه لوضوحه التام. إلا أن أنهم يقطعون عرضاً العصب الراجع إلى فوق، وذلك في الجراحات العظمية بالرقبة. لذلك يتعرض العليل لفقده صوته كليا، أو يصبح مثل السرار [٣].

إن الأطباء العرب الذي درسوا كتب جالينوس كانوا يعرفون تماما أهمية علم التشريح في دراسة الطب وممارسته. وإن المرء ليتعجب: لماذا لم يسهموا في بناء صرح هذا العلم كإسهامهم الأصيل في فروع الطب الأخرى، كعلم وظائف الأعضاء وعلم الطب السريري؟

هناك سببان لذلك:

السبب الأول: هو نكوص الاهتمام بالتشريح في مدرسة الإسكندرية في القرن السادس والسابع الميلادي. إذ تعرضت ممارسة التشريح لمعانة سياسية ودينية. ويقول أبو الحسن علي بن رضوان المصري (توفى حوالي سنة

(٣) ألبير زكي اسكندر تطور جديد في مناهج تعليم الطب العربي في عصر ابن النفيس، محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس ١٥ بحثاً في الفلك والطب والعلوم ٥ ـ ٨ / ١٠ / ١٩٨٧ في الجامعة الأردنية ـ دار الفكر دمشق سوريا ١٩٩١م.

http://kotob.has.it

٤٥٣هـ/١٠٦١م) في مؤلفه (الكتاب النافع في كيفية صناعة الطب): إن الأباطرة الرومان في القرن الخامس الميلادي كانوا قد توقفوا عن رعاية الفلاسفة والأطباء، إذ سرى الاعتقاد أن علوم الفلسفة والتشريح تتنافي مع تعاليم الدين المسيحي. فوقع مدرسوا الإسكندرية في حيرة شديدة، وكان عليهم أن يختاروا بين أمرين: إما قبول الدارس علم الطب كلية وإما وضع منهاج مخفف يختزل فيه أغلب مبادئ الفلسفة وعلم التشريح. فاختاروا وضع منهاج مخفف لإرضاء أباطرة الرومان.

ووضع أوريباسيوس (توفي سنة ٤٠٣م) كنّاشه المعروف، وهو كتاب مختصر في الطب، ليعرف الأباطرة الرومان بأن كتب الطب خالية تماما مما يتضارب مع تعاليم الدين. كما سار بولس الأجنيطي (من القرن السابع الميلادي) على منوال أوريباسيوس فألّف كتبه السبعة المختصرة في الطب.

وكان بالإسكندرية في القرن الثاني الميلادي جرّاحون مهرة. ونستخلص ذلك من قول جالينوس في المقالة الثالثة من كتابه (في تعرّف علل الأعضاء الآلة): «ولكني - أنا - في أيام مقامي بإسكندرية رأيت رجلا من أهل القرى، نهشه ثعبان في إصبع من أصابع يده - في موضع قريب من المدينة - فربط اصل تلك الإصبع، عند مشط الكف ربطا شديدا جدا. ثم بادر إلى المدينة وصار إلى طبيب من معارفه وأمكنه من إصبعه أن يقطعها بأجمعها من مفصلها الذي يلي المشط. وطمع أنه إذا فعل ذلك فلن يناله سوء فتم له ما أمّله».

والسبب الثاني: هو موقف الدين الإسلامي من جسم الإنسان ورفقه بالحيوان. إذ يمنع الدين الإسلامي التمثيل بجثث الموتى البشر ولا يسمح بالاعتداء على حرمة حياة الأحياء. ولا يسمح بقتل الحيوان إلا بشروط. وهذا يفسر ان يأخذ الأطباء علم التشريح عن سابقيهم وخاصة كتب جالينوس.

http://kotob.has.it

ابن النفيس وقضية التشريح من المنظور الإسلامي:

إن من العبارات التي أثارت كثيرا من الجدل قول ابن النفيس في مقدمة كتابه «شرح تشريح القانون»: «وقد وجدنا من مباشرة التشريح وازع الشريعة وما في أخلاقنا من الرحمة».

وذلك أن هذه العبارة تم التأمل في دلالتها، والمقصود بها من خلال ما ثبت عن ابن النفيس في معرض وصفه لعدد تجاويف القلب بعد تخطئته لجالينوس ولابن سينا في عددها وقوله: «والتشريح يكذب ما قالوه».

وقد علق الكثيرون على هذا الموقف الذي يوهم ظاهره بالتناقض، إذ يذكر أنه لم يباشر التشريح ثم يعتمد التشريح في تخطئة السابقين له. قال بول غليونجي في كتابه عن ابن النفيس[٤]: ولسنا نجد تفسيرا لهذا التناقض الظاهري سوى أنه حرص على عدم إثارة حنق رجال الدين، وقال أيضا: ولعل السبب في أن ابن النفيس ختم مقدمته باقتباس من جالينوس في شأن التشريح وطرقه هو: رد تهمة انتهاك حرمة الجسم البشري، وهي تهمة كانت في عهده خطيرة، والتمويه بإسناد أقواله إلى هذا العالم الفاضل.

وقال سلمان قطاية في كتابه عن ابن النفيس[٥]:.. أراد أن ينفي عنه التهمة من البداية فكتب هذه الجملة، خاصة أن القلائل هم الذين سيقرؤون الكلام برمته ولأن النُسخ منه قليلة، والمعروف أن المؤلف يكتب مقدمة كتابه

(٤) بول غليونجي: ابن النفيس اعلام العرب (٥٧) الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (بدون تاريخ).

(٥) سلمان قطاية: الطبيب العربي ابن النفيس اعلام الطب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٤ .

http://kotob.has.it

بعد الانتهاء من تأليفه، ثم أرود قطاية نصوصا من شرح التشريح تدل على أنه شرح الإنسان وليس الحيوان فقط .

ولئن جارينا هذه المقولة فإن كان يسع ابن النفيس السكوت عن هذه القضية إذا سلمنا ـ وهو ما حصل فعلا ـ من أن القلائل سيقرؤون الكلام برمته في ظروف قلة نسخ كتابه، ولا أدري كيف استباح المعلقون على كلامه اتهامه بالتناقض، لو تجاسروا أكثر لوصفوه بالكذب! مع أنه لا تعارض ولا تناقض بين ما نفاه وما أثبته.

فالتشريح الذي منعه منه وازع الشريعة هو تشريح الأحياء، بدلالة قوله بعدئذ: «وما في أخلاقنا من الرحمة» أما الذي استند إليه في تخطئة من سبقوه فهو تشريح غير الأحياء، سواء في ذلك جثث الحيوان أو الإنسان حيث لا يتأدى الغرض من تشريح جثث الحيوان الشبيهة في كل شكل الأعضاء ووظائفها ويدل على هذا التوفيق بين الكلامين أن التشريح كان يجري على الحيوان وهو حيّ، وذلك لإدراك حركة العضلات والشرايين أو الرئة أو غيرها من الأعضاء، يدل على ذلك قول ابن النفيس في شرح ماهية التشريح: «..والمعلوم أنه إنما يوقف عليه في تشريح الأحياء ولكن يعسر ذلك بسبب اضطراب الحي لتألمه وحتى في حال تشريح جثث الحيوان فإن جالينوس كان يفضل طريقة الخنق بالماء بدلا من الخنق بالحبل أو نحوه لئلا يرضّ شيء من أجزاء العنق» .

وبعد فإن في الفتاوى المعاصرة منذ قرابة قرن مضى ما يبيح التشريح لجثث الحيوان مطلقا ـ بعد ذبحه لتفادي التعذيب ـ كما يبيح التشريح لجثث الإنسان بقصد التحقيق الجنائي أو التدريب الطبي بما يعود بالنفع العام على

http://kotob.has.it

بني الإنسان وما أخال منهج الفقهاء السابقين يبعد عما توصل الحاضرون إلى تقريره فإن الفقه منضبط بأصوله المتزنة المطردة، وليست هذه الشبهات المثارة إلا إسقاطا لما وقع في عصر الظلام في بلاد الغرب بمواقف سلبية من طبقة رجال الدين هناك وهذه الطبقة لا وجود لها في الإسلام بهذه السلطة المطلقة في التحريم والتحليل، وإنما هناك الفقهاء المتخصصون الذين يسندون آراءهم إلى نصوص وقواعد يتاح لكل من يتقن التعامل معها أن يتفهم أو يستفهم عن سلامة الاستدلال بها.

والجدير بالإشارة هنا ـ وهو ما لم ينوء به المتناولون لهذه القضية ـ ان ابن النفيس أشار في «الرسالة الكاملية» إلى هذين النوعين من التشريح:

تشريح الأحياء، وتشريح الجثث بقوله: «عن فاضل بن ناطق» وتشوق إلى تعرف منافع ما في داخل البطن والصدر من الأعضاء، ورأى أن يكون اعتباره لذلك في غيره، فصار يشق بطن الحيوانات التي يتمكن من إمساكها، والتي يصادفها ميتة.... الخ.

فالحالة الأولى: هي الإمساك باصطياد الحيوان حيا وتشريحه، والحالة الثانية فيما لا يمكن اصطياده هي تشريح جثته التي يصادفها .

هل مارس الأطباء المسلمون التشريح؟

يورد الباحث ماهر عبد القادر[٦،٧] علي ردوداً مستفيضة يتناول فيها البينات الايجابية والسلبية في مناقشات مبنية للدفاع ضد ما قرره

(٦) ماهر عبدالقادر علي: مقدمه في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م.

(٧) ماهر عبدالقادر علي: الطب العربي رؤيه ابستمولوجية، سلسلة قضايا تاريخ العلم العربي (١)، دار النهضة العربية بيروت، لبنان ـ ١٩٩٧م.

http://kotob.has.it

المستشرقون من أن الأطباء العرب المسلمين لم يعرفوا التشريح. وبنى حججه على أبحاث بول غليونجي وسلمان قطايه حول هذا الموضوع. ويسند دفاعه عما ورد في كتب التاريخ من قصص وما أورده المستشرقون المؤيدون ونورد نص بناء الدفاع للبينة الايجابية لهذا الباحث لفائدة ابنائنا الباحثين ونحيل المهتمين بالبينات السلبية لمطالعة كتابه القيم.

يقول ماهر عبد القادر علي: عن التشريح في العالم الإسلامي:

ورد في الكتابات القديمة نصان يوضحان بصورة كافية خطأ فكرة المستشرقين عن عدم مزاولة التشريح في العالم الإسلامي، إذ يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان وفي الجزء الأول منه على وجه التحديد، أنه لما جرح علي بن أبي طالب وجمع له الأطباء، لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم، وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكوني الطبيب الكوفي المعروف، بابن عمر فأخذ أثير رئة شاه حارة فتتبع عرقاً فيها فاستخرجه وأدخله في جراح الإمام علي ثم نفخ في العرق واستخرجه، فإذا عليه بياض الدماء، إذا وصلت إلى أم رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين إعهد عهدك. هذا النص يوضح أن المسلمون مارسوا الجراحة والتشريح في أوائل عهد الإسلام. إنه حتى يمكن للطبيب أن يتتبع عرقاً ويستخرجه، لابد له أن يعرف موضع العروق، وأيها أساسي.

ومن جهة أخرى تجمع كل الكتابات إلى بين أيدينا أن يوحنا بن ماسويه الطبيب الصيدلاني العربي النصراني السرياني، زاول التشريح، والنص التالي مأخوذ عن ابن أبي أصيبعة الذي يروي أن رسول الخليفة جاء إلى يوحنا وقال له: (يقول لك أمير المؤمنين، زوج هذا القرد من حماحم قردتك، وكان ليوحنا قردة يسميها حماحم، كان لا يصبر عنها ساعة. فوجم لذلك ثم قال للرسول:

http://kotob.has.it

قل لأمير المؤمنين اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين، وإنما دبرت تشريحها ووضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح، يكون جمال وصفي إياه لأمير المؤمنين، وكان في جسمها قلة تكون العروق فيها والأوراد والعصب دقاقاً، فلم أطمع في اتضاح الأمر فيها مثل اتضاحه فيما عظم جسمه. فتركتها لتكبر ويغلظ جسمها فأما إذ قد وافى هذا القرد، فستعلم أمير المؤمنين، أنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله. ثم فعل ذلك بالقرد، فظهر له منه كتاب حسن استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

وقد ذكر ابن القفطي وابن أبي أصيبعة أيضاً، واقعة يوحنا بن ماسويه وابنه الذي كان متخلفاً، عليه علامات البله، فعندما مات الابن، وبلغ يوحنا خبر موت ابنه، قال: (لولا كثرة فضول السلطان ودخوله ـ فيما لا يعنيه ـ لشرحت ابني هذا حياً مثل ما كان جالينوس يشرح الناس والقرود فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته وأريح الدنيا من خلقته، وأكسب أهلها بما أضع في كتابي من صفة تركيب بدنه ومجاري عروقه وأوراده وأعصابه علماً، ولكن السلطان يمنع ذلك).

نلاحظ على النص الأول والثاني الملاحظات التالية:

١ـ قول يوحنا (وإنما دبرت تشريحها)، وهذا التصريح سوف يحمله الرجل إلى أمير المؤمنين بكل تأكيد، فإن كان هناك نهي عن التشريح تماماً، كما ذكر ماكس مايرهوف في الفقرة «١» بقوله: (إن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً)، لو صدق هذا الرأي ما استطاع يوحنا بن ماسويه أن يصرح للرجل ـ الذي سوف يحمل رده إلى أمير المؤمنين ـ بمثل هذا القول.

http://kotob.has.it

٢ـ قول يوحنا (إنني سأضع كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله)، هذا القول، يعني أنه لم تكن هناك كتابات في العالم الإسلامي وقتئذ تتكلم عن التشريح، وأن هذا الحدث سوف يعتبر فريداً من نوعه، وهو الأول.

٣ـ تعليق ابن أبي أصيبعة بالقول: (ثم فعل ذلك بالقرد)، يعني أنه شرح القرد، وفعل به ما أراد، ووضع الكتاب.

٤ـ قول يوحنا بعد سماعه موت ابنه المتخلف عقلياً: (لولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرحت ابني هذا حياً)، وهذا يعني ثلاثة أمور: أولها، أنه كان يريد تشريح ابنه حياً، لكنه خشي مغبة ذلك. والثاني، أنه ربما شرح ابنه جسداً ميتاً. والثالث أن التشريح البشري كان ربما كان يمارس سراً في ذلك الوقت. ولا يمكن بحال من الأحوال أن نزعم أن التشريح لم يزاول في تلك الفترة أو بعدها. وإنما غاية ما يمكن أن نقول أن لفظة (السلطان) التي وردت على لسان يوحنا تعني خوفه من رجال الدين، ونحن نعلم أن نفوذ الحنابلة ورجال الدين في العصر كان قوياً، ولو كان فعل، لكانوا أقاموا عليه الحد.

تلك الملاحظات التي يمكن لنا أن نستنتجها من يوحنا بن ماسويه. حدث هذا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، أفلا يمكن لنا أن نتصور مع عامل التقدم الزمني، أن يحدث هذا بصورة أكبر في القرن السادس أو السابع الهجري.

إن مناقشة قضية التشريح هي ما يعنينا هنا، الآن. ولدينا من الكتابات العربية بينات أخرى كثيرة ترفع من درجة تأييد الفرض القائل بأن العرب مارسوا التشريح. لنستمع إلى بعض علمائنا اليوم وهم يدللون على صحة البيئة.

http://kotob.has.it

١ ـ تذهب زيغريد هونكه[٨] في مؤلفها القيم الذي تتبعت فيه بصبر وأناة إسهامات العرب والمسلمين في شتى الميادين إلى أن (ابن النفيس اعتمد قبل كل شيء على استقراء الطبيعة بواسطة الملاحظة والدرس والتجربة، فرأى تبايناً في تركيب أجسام الحيوانات المختلفة، فأوصى بدراسة التشريح المقارن لكي نلم بالاختلافات. ثم اعتمد التشريح طريقة له في العمل والبحث. معنى هذا أن هونكه على خلاف كثير من المستشرقين تجد أن ابن النفيس اختط لنفسه منهجاً دقيقاً وهو (اعتماد التشريح طريقة للعمل) حتى يمكن فهم طبيعة كل عضو ووظيفته وكيفية ترابطه بالتآزر مع الأعضاء الأخرى داخل الجسد.

٢ـ أما خير الله[٩]، وهو طبيب بارع، اهتم بدراسة جوانب الطب العربي وإلقاء الضوء عليها بصورة رائعة، فقد أثبت في مناقشاته التي سطرها منذ أعوام طويلة في كتابه عن الطب العربي، أن الأطباء العرب كانوا في موقف حرج، والسبب في هذا أنه في أحيان كثيرة نجد في الكتابات العربية جملاً كهذه: أن التشريح يكذب ما ذكر، أو(أن التشريح يبرهن كذا وكذا) مما يدل على أنهم قد شرحوا بعض التشريح ولكن لم يمكنهم المجاهرة. والسبب من هذا كما يقول ابن النفيس في مقدمة (شرح تشريح القانون)، (فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله (أي جالينوس) إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ، أو أخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها. وأما

(٨) زيغريد هونكه شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوربا. ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة مارون عيسى الخوري ـ دار الآفاق الجديده ط٦، ١٩٨١م.

(٩) أمين أسعد خيرالله: الطب العربي (ص١٧٠) مقدمة لدرس مساهمة للعرب في الطب والعلوم المتصلة به، الطبعة الاميركانية بيروت ١٩٤٦م.

http://kotob.has.it

منافع كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، و لا علينا وافق رأي من تقدمنا أو خالفه.

٣ـ أما بول غليونجي[١٠]، وهو طبيب، خبر الطب وعرفه جيداً، وفهم حس الطبيب فيعلق على مقدمة ابن النفيس قائلاً (هل كانت هذه المقدمة مجرد (حبر على ورق)؟ وهل نقلها نقلاً عمن سبقوه في التشريح أمثال جالينوس؟ أما هل كان مردها إلى دروس تعلمها بنفسه في مدرسة التجربة اليومية، وهي ترن في آذاننا رنة صادقة كأنها صدى الخبرة الشخصية.

لقد أراد بول غليونجي أن يضفي على المسألة المشكلة خبرته الشخصية كطبيب يعلم أسرار المهنة، وتصور نفسه في عصر ابن النفيس. ماذا كان سيفعل يا ترى؟ لابد وأنه كان سيفطن إلى أن رجال الدين، أصحاب السلطة القوية، في عصر كان طابعه القسوة إلى حد ما، لن يسمحوا للعالم أن يعلن جهاراً نهاراً مزاولته التشريح. إنه إن فعل سيجلب عليه النقمة، وإن سكت يكون قد كتم الحقيقة. وفي حالة الطبيب فإنه يتحدث دائماً بلغته الطبية إلى أطباء يعلمون ويعرفون أسرار المهنة. كان ابن النفيس بلا شك يدرك تماماً أن الطبيب البارع، والمجرب الحاذق، إذا قرأ كلماته بعد سنوات طوال سيعرف مقصده تماماً، وما كان يفعله. وقد دلل بول غليونجي على هذه المقولة أبرع تدليل وهو يناقش المسألة بأسلوب تحليلي رائع من خلال الأمثلة، وانتهى إلى التقرير الآتي: (وإلى هذا فإن أردنا تكوين ملف وهمي عنوانه (هل مارس ابن النفيس التشريح؟) فعلينا أن نضم إليه مستنداً ذكرناه عند الكلام عن (شرح القانون)، وهو نبذة يقول فيها: (التشريح يكذب هذا). ولعل السبب في أن ختم

(١٠) بول غليونجي (ابن النفيس).

http://kotob.has.it

ابن النفيس مقدمته باقتباس من جالينوس هو رد تهمة انتهاك حرمة الجسم البشري، وهي تهمة كانت في عهده خطيرة، والتمويه بإسناد أقواله لهذا العالم الفاضل.

وربما كان هذا التحليل الذي قدمناه يتسق إلى حد كبير مع فقرة رائعة لها دلالتها قدمها لنا سلمان قطاية في مؤلفه عن (ابن النفيس)، ذلك أن انطوان كلوت الطبيب الفرنسي الذي أسس مدرسة الطب في مصر على عهد محمد علي، أراد تشريح الجثث بغرض التدريس، لكنه اصطدم برجال الدين وقتئذ، فما كان من كلوت إلا أن ذهب للشيخ العروسي لمحادثته في الأمر، وهنا كشف سلمان قطاية عن نص هام يعتبر بمثابة بينة جديدة نضيفها إلى ملف بول غليونجي، حيث يقول ويتبين بوضوح أن سبب منع تشريح الجثث هو الخوف من إثارة عواطف العامة إذ يقول: (واعتقد أنني رأيت في تردده (أي تردد الشيخ) الخوف من الاصطدام بمعتقدات قديمة أكثر من شكه في فكر مقتنع نصف اقتناع. والذي أكد لي هذه الفكرة، أنني توصلت إلى الحصول على موافقته الخفية لتدريس التشريح لكنه أخذ مني عهداً بأن لا أفعل ذلك إلا باحتراس وسرية).

لقد استطاع قطاية أن يقوم بمحاولة تحليلية تركيبية لنصوص ابن النفيس، تماماً كما فعل بول غليونجي. لقد أثبت غليونجي نقطة الإضافة للرجل في قوله (والتشريح يكذب هذا). على حين أن قطاية أضاف نقطة أخرى هامة تثبت أن ابن النفيس زاول التشريح، وهذا ما يتبين من نصه الذي يقول فيه أن الأطباء (كرروا جميعاً خطأ جالينوس... ما عدا ابن النفيس الذي يقول منتقداً جالينوس الذي ادعى أن (المرارة ينفذ منها إلى الأمعاء مجرى آخر تنفذ منه الصفراء إلى تجاويف الأمعاء. وهذا لا محالة باطل، فإن المرارة

http://kotob.has.it

شاهدناها مراراً، ولم نجد فيها ما ينفذ لا إلى المعدة ولا إلى الأمعاء) ويعلق قطاية أن هذا الكلام حق، فهو يقول أنه (شاهد) المرارة مراراً، معنى ذلك أنه شاهدها عياناً وعلى الإنسان، لأن جالينوس يقول إنك (سترى في بعض الحيوان) لذلك أخطأ، ولأن ابن النفيس شرح الإنسان استدرك الخطأ. وهذا اكتشاف جديد يضاف إلى اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى.

لكن يبدو أن ابن النفيس لا زال بحاجة إلى كشف آخر، وهذا ما سنثبته الآن، لنضيف إلى ملف ابن النفيس الذي وضعه بول غليونجي كشفاً آخر يؤكد سبقه إلى التشريح.

إن النص الذي أراد غليونجي أن يستشهد به، ويستخلص منه عبارة (والتشريح يكذب ما قالوه) ويعتبرها بمثابة الكشف، هذا النص في غاية الأهمية لإضافة بينة إيجابية ترفع من قيمة كشف ابن النفيس . لقد اعترض ابن النفيس أصلاً على فهم ابن سينا للقلب وتكوينه، واعتبر غليونجي أن هذا الاعتراض، مجرد اعتراض، والدليل على ذلك أنه ذكر (وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن النفيس).

هذا هو النص الذي قدمه ابن النفيس ونقله غليونجي الذي جرى وراء آخر عبارات الرجل، رغم أن البيئة بادية في أول النص. إن ما يذكره ابن النفيس من أن ابن سينا يزعم (نقلاً عن جالينوس) أن القلب فيه ثلاث بطون، فإن ابن النفيس كان يقصد أن يثبت لنا شيئاً، وهو أن (جالينوس) اهتم بتشريح الضفادع، فقلب الضفدع به ثلاثة بطون، وهذا هو ما جعل ابن النفيس يربط آخر النص بأوله، وتصبح عبارة ابن النفيس معناها، (لقد فهم (جالينوس) أن هناك مماثلة بين قلب الضفدع الذي فيه ثلاثة بطون، وقلب الإنسان، ولكن التشريح يكذب ما ذكره، لأن قلب الإنسان فيه بطنان فقط ولا منفذ بينهما).

http://kotob.has.it

بهذه الصورة نكون قد كشفنا بينة جديدة ترفع من صحة تأييد أدلتنا على ممارسة ابن النفيس للتشريح. وبذا يصبح ملف ابن النفيس الذي كونه غليونجي يحمل المستندات التالية، كدليل وبينة إيجابية.

١ـ المستند الأول: قول ابن النفيس (والتشريح يكذب هذا). وكان أن وضع غليونجي هذا المستند.

٢ـ المستند الثاني: قول ابن النفيس (أنه شاهد المرارة مراراً) وقد كشف قطاية عن هذا المستند.

٣ـ المستند الثاني: قول ابن النفيس عن فكرة ابن سينا عن القلب (قوله وفيه ثلاثة بطون. وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط).

*****

http://kotob.has.it

الفصل الثالث

مؤلفات ابن النفيس

لم يقتصر ابن النفيس في اهتماماته العلمية على الطب وحده، بل شارك ـ ووضع المؤلفات ـ في فنون ومعارف متنوعة. وإن نظرة إلى قائمة مؤلفات ابن النفيس، لتدل دلالة واضحة على عبقرية هذا الرجل الذي جمع بين رئاسة الأطباء وتدريس الفقه الشافعي في المدرسة المسرورية، وكان إذا أراد الكتابة في علم من العلوم توضع له الأقلام مبريّة، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف، إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل اذا انحدر. فإذا كلّ القلم وحفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم [1].

وعني بمتابعة تأليف ابن النفيس التي روى أنه قال عنها: «... لو لم أعلم أنها تبقى بعدي عشرة آلاف سنة، ما وضعتها...» [2]، مجموعة المؤرخين منهم ماهر علي عبد القادر وألبير اسكندر وبول غليونجي ومصطفى الشكعة ويوسف زيدان. و يبدو أن هناك إجماع على أن هذه القائمة لم تسلم من الضياع فأغلبها مفقود.

ويذكر يوسف زيدان في بحثه في مخطوطات ابن النفيس أن له ثمانية كتب منشورة هي:

شرح فصول أبقراط

رسالة الأعضاء

(١) العمري (مخطوط) مسالك الأبصار. ملحق بكتاب ابن النفيس بول غليونجي ص ١٨٨ .
(٢) المرجع السابق ص١٩٠ .

http://kotob.has.it

المختار من الأغذية

المختصر في علم أصول الحديث

الرسالة الكاملية في السيرة النبوية: فاضل بن ناطق

شرح تشريح القانون

المهذب في الكحل المجرب

الموجز في الطب

أما المخطوطات الموجودة فهي:

بغية الطالبين

شرح طبيعة الانسان لأبقراط

شرح ابيديميا (الأوبئة) لأبقراط

شرح تشريح جالينوس

شرح تقدمة المعرفة لأبقراط

شرح الكتاب الثالث من القانون

شرح كليات القانون

شرح المسائل في الطب لحنين ابن اسحق (ثمار المسائل)

شرح معالجات القانون

شرح معاني القانون

شرح مفردات القانون

مفتاح الشفاء

الوريقات في المنطق

الشامل في الصناعة الطبية

http://kotob.has.it

ويورد أسماء مجموعة من المخطوطات المفقودة:

جامع الدقائق

الحكمة

رسالة في أوجاع الأطفال

شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا

طريق الفصاحة في النحو

شرح التنبيه في فقه الشافعية للشيرازي

شرح الهداية في المنطق لابن سينا

طريق الفصاحة في النحو

رسالة في مواليد الثلاثة

مقالة في النبض

بغاية الإيجاز وبغية المختار (الفلك)

كيفية الإبصار دون سائر الحواس.

وأضاف ابراهيم بن مراد اسم كتاب شرح طبيعة الإنسان لأبقراط[٥]

أما ماهر علي عبد القادر فكان قد ذكر الأسماء التالية ومكان تواجدها حسب المصادر التي راجعها وقد قمنا بتحديث القائمة وقارنا ما جاء فيها مع قائمة كل من يوسف زيدان و مصطفي الشكعة المقدمة إلى الندوة التراثية الثانية المطبوعة بالكويت ١٩٩٩:

(٥) إبراهيم بن مراد؛ ابن النفيس الطبيب مقارنة بابن سينا نظرات في مادة علم الطب ومنهج معالجته بين ابن النفيس وابن سينا في: عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ ص ٤٠٥ .

http://kotob.has.it

١ـ الشامل في الطب:

وهو كتاب موسوعي في الطب، يشبه موسوعة (الحاوي) لأبي بكر الرازي. تقول المراجع إن هذا الكتاب تدل فهرسته على أنه يقع في ٣٠٠ مجلداً، بيّض منها ابن النفيس ثمانين مجلدة (٦). وذكر العمري في (مسالك الأبصار) أن الثمانين مجلداً التي انتهى منها ابن النفيس، توجد بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة، إلا أن مايرهوف يقول إن الكتاب غير موجود في أية مجموعة شرقية وتعرف من مخطوطات الكتاب:

١ـ بمتحف الآثار العامة ببغداد، برقم ١٢٧١(٧).

٢ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة (جزء مصور بالتصوير الشمسي) برقم ٤٢٣ طب/ تيمور.

٣ـ نسخة بمكتبة لابن الطبية بجامعة ستانفورد في كاليفورنيا (ثلاثة مجلدات كتبت سنة ٦٤١هـ، على المؤلف) برقم ٢٧٦(٨).

٤ـ عدة نسخ بمكتبة البودليان بأكسفورد، تحتوي كل نسخة على عدد من مجلدات الكتاب، بأرقام ٢٤٨/٢٩٠/٢٩١/٢٩٢/٥٣٦/٥٣٩ POCOCKE(٩).

ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً.

٢ـ الموجـز:

من أشهر كتب ابن النفيس الطبية، يقول عنه حاجي خليفة: هو موجز في الصورة، لكنه كامل في الصناعة [١٠] وهذا الكتاب أراد فيه ابن النفيس أن

---

(٦) طبقات الشافعية جـ ٥ / ص١٢٩، وشذرات الذهب جـ ٥ / ص ٤٠١، ومفتاح السعادة جـ ١ / ص ٣٢٩ .

(٧) صلاح المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الخامس الجزء الثاني/ ص٢٧٠ .

(٨) نقولا هو، مجلة معهد المخطوطات العربية (الجزء السادس ١٩٦٠م).

(9) Brockelmann: Giescheishte der Arabishen Leliratur (sgpp) Leiden 1937 - 1, (900-15).

(١٠) كشف الظنون جـ ٢ / ص ٥٦٧ .

http://kotob.has.it

يوجز ما ذكره ابن سينا في كتاب (القانون) لكنه لم يتعرض فيه لموضوعات التشريح، التي أفرد لها كتاباً آخر وتوجد من هذا الكتاب عشرات النسخ المخطوطة في مكتبات العالم، وفي دار الكتب المصرية وحدها توجد ١٣ مخطوطة للكتاب، كتبت في تواريخ مختلفة، ولهذا الكتاب شروح، منها:

شرح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحكيم السويدي، المتوفى ٦٩٠هـ.

شرح سديد الدين الكازروني، المتوفى ٧٤٥هـ.

شرح جمال الدين الأقصراني ، المتوفى ٧٧٩هـ.

شرح المتوفى نفيس بن عوض الكرماني المتوفى ٨٥٣هـ.

شرح محمد بن أحمد الأمشاطي، المتوفى ٩٠٢ .

شرح أحمد بن إبراهيم الحلبي، المتوفى ٩٧١ .

شرح قطب الدين الشيرازي (؟).

شرح محمد الإبجي البليلي (؟).

وطبع الكتاب (طبعة حجر رديئة) بدلهي سنة ١٣٣٢ هـ، بعنوان: الموجز المحشي، كما طبع شرح الأقصراني بلكنئو سنة ١٢٩٤هـ، بعنوان: حل الموجز. وطبع شرح نفيس بن عوض بالهند سنة ١٣٢٨هـ، مع حاشية لمحمد بن عبد الحليم اللكنوي المتوفى ١٢٨٥هـ. ونقل الكتاب للغة التركية مرتين، قام بإحداهما مصلح الدين بن شبعان المعروف بسروري (توفى ٨٦٩هـ) وقام بالترجمة الأخرى أحمد بن كمال الطبيب بدار الشفاء بأدرنه. وترجم إلى اللغة العبرية بعنوان (سفر همّوجز) وإلى الإنجليزية بعنوان (المعني في شرح الموجز).

٣- المهذّب:

وهو كتاب في الكحالة (طب العيون) وتوجد منه نسخ بعنوان: المهذّب وتوجد منه نسخ بعنوان: المهذّب في الكحل المجُرّب، ونسخ بعنوان: المهذّب في

http://kotob.has.it

طب العيون. ويقال إن الكتاب حاز في زمانه شهرة واسعة، ولذا ذكرته معظم المصادر. ومن مخطوطات الكتاب:

١ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ٤٠٥ طب / تيمور.

٢ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٨٤٤ طـب .

٣ـ نسخة بالفاتيكان، برقم ١٣٠٧ .

وقام بتحقيقه الدكتور ظافر الوفائي ومحمد رواس قلعه جي وطبع بالرباط ١٩٨٨ وبالرياض ١٩٩٤م.

٤ـ شرح كليات القانون:

وهو شرح لكليات كتاب القانون لابن سينا، يقول ابن النفيس في مقدمته: (فإن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا) وتوجد مخطوطاته:

١ـ نسخة ضمن مجموعة برقم ٢٦١٢٨/ جامعة القاهرة.

٢ـ نسخة (ناقصة من أولها) بدار الكتب المصرية، برقم ١٣٩٥ (ميكروفيلم ٣١٣٩٤).

٣ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٨٥٠/ طب (ميكروفيلم ٣١٣٠٧).

٤ـ نسخة أخرى بدار الكتب المصرية، بالرقم السابق/طب (ميكروفيلم ١٨٦٧٤).

٥ـ نسخة بأكاديمية طب نيويورك.

وتوجد ترجمة لجزء من الكتاب للغة اللاتينية، قام بها الطبيب الإيطالي (ألباجو) الذي يعتبر حلقة الوصل بين ابن النفيس والأطباء الأوربيين. ولا يزال الكتاب مخطوطاً.

http://kotob.has.it

٥ـ شرح مفردات القانون:

كتاب غير معروف تماماً لابن النفيس، أشار بروكلمان إلى وجود نسخة فريدة منه بمكتبة آيا صوفيا بتركيا برقم ٣٦٥٩ .

٦ـ شرح تشريح القانون:

وهو الكتاب الذي سجل فيه ابن النفيس اكتشافه للدورة الدموية الرئوية، قبل ظهور كتاب وليم هارفي (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان) ـ الذي ظهر سنة ١٦٢٨ محدثاً ضجة في الأوساط العلمية ـ بمئات الأعوام. وتوجد عدة مخطوطات للكتاب، منها:

١ـ نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق(*)، برقم ٣١٤٥ (الرقم الجديد ٥٩ طب).

٢ـ نسخة بآيا صوفيا باستنبول، برقم ٤١٩٩ .

٣ـ نسخة برلين رقم ٦٢٢٤٣، التي اعتمد عليها د/ التطاوي، قام الدكتور سلمان قطايه بتحقيقه وراجعه بول غليونجي وطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٨ .

٧ـ تفاسير العلل وأسباب الأمراض:

انفرد بروكلمان بذكر هذا المؤلف لابن النفيس، معتمداً على وجود نسخة خطية منه(١١)

٨ ـ المختار من الأغذية:

وهو كتاب يعني بالغذاء في الأمراض الحادة ـ مر علينا كتاب لابقراط في نفس الموضوع ـ ذكره غليونجي اعتماداً على ما أورده (الواردت) من وجود مخطوطة منه ببرلين حققه يوسف زيدان وطبع في القاهرة عام ١٩٩٢م.

---

(11) Brockelmann (supp) 1 (900 - 11).

(*) نقلت كتب هذه المكتبة إلى مكتبة الأسد بدمشق.

http://kotob.has.it

٩. بغية الطالبين وحجة المتطبيين:

أورده عمر كحاله[١٢]، ولم نقع على ذكر لأية مخطوطات من هذا الكتاب.

١٠. كتاب في النبض:

يذكره المؤرخون أن ابن النفيس كان مرة في (الحمام) الموجود بباب الزهومة، وبينما هو يغتسل، خرج وطلب دواة وأوراق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وأكمل اغتساله. وتعد هذه المقالة في حكم المفقود.

١١. شرح مسائل حنين بن إسحاق:

وهو شرح لكتاب حنين بن إسحاق العبادي (مسائل في الطب للمتعلمين) الذي تناوله بالشرح عدد من الأطباء، منهم ابن أبي صادق النيسابوري وابن النفيس.. وتوجد من مخطوطات شرح ابن النفيس:

١ـ نسخة ببرلين، برقم ١٠٤٠.

٢ـ نسخة بليدن، برقم ١٣٠٤ .

١٢. شرح كتاب أبيديميا:

وهو شرح وضعه ابن النفيس على كتاب الأوبئة (أبيديميا) لابقراط. وتوجد له عدة نسخ مخطوطة منها:

١ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة، برقم ٥٨٣طب / طلعت.

٢ـ نسخة بآيا صوفيا، برقم ٣٦٤٢/أ.

وعنوان الكتاب عند بروكلمان، شرح ابيديميا لابقراط وتفسير المرض

(١٢) عمر كحاله معجم المؤلفين الجزء السابع ص٥٨ .

http://kotob.has.it

الوافد، وذلك اعتماداً منه على (ريتر) ونسخة آيا صوفيا، أما نسخة القاهرة فهي بعنوان: شرح كتاب أبيديميا.

١٣- شرح تقدمة المعرفة:

وهو شرح على كتاب (تقدمة المعرفة) الذي يبدأه ابقراط بقوله:

(إني أرى أن يستعمل الطبيب سابق النظر) . ويظهر في شرح ابن النفيس أسلوبه العلمي ومنهجيته، فهو يبدأ في شرح هذه الفقرة بقوله: (النظر يقال على معاني، المشهور منها ستة. أحدها تأمل الشيء بالعين، وثانيها الانتظار، وثالثها المقابلة فيقال دور مناظرة أي متقابلة، ورابعها العناية يقال نظر الله إلى فلان أي اعتنى به. وخامسها الفكر والروية. وسادسها العلم.

١٤- شرح تشريح جالينوس:

توجد نسخة من هذا الكتاب بآيا صوفيا (برقم ٣٦٦١) إلا أن نسبة هذا الشرح لابن النفيس ليست أكيدة. ومن المعروف أن ابن النفيس لم يكن يستحسن كلام جالينوس كثيراً، في حين كان يقدر أبقراط تقديراً عميقاً. ومع ذلك، فإن التحقق من نسبة الكتاب لابن النفيس ينبغي أن تكون بعد دراسة لهذا الشرح، ومقارنته بشروح ابن النفيس على مؤلفات أبقراط وابن سينا.

١٥- الرسالة الكاملية:

كتاب لابن النفيس في السيرة النبوية، عنوانه كاملاً (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) وقد أشارت بعض المصادر إلى هذا الكتاب، وذكر بروكلمان أن له نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة.

وهذا الكتاب تعرض لبعض اللبس في الفهم، إذ اعتقد أنه يختلف عن عنوان آخر ذكر في بعض المراجع باسم (فاضل بن ناطق)، ولكن هذا غير

http://kotob.has.it

صحيح. إذ أن ابن النفيس كتب الرسالة الكاملية أساساً ليعارض بها رسالة ابن سينا المسماة (حي بن يقظان) وكذا ابن الطفيل. وقد ذكر العمري في ترجمته لابن النفيس أنه: انتصر في هذا الكتاب لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم. وأبدع فيه ودل على تمكنه من العلوم العقلية.

يقول ماهر عبد القادر محمد علي في مقدمته في تاريخ الطب العربي: «ويبدو أن بروكلمان وقع في ذات الخطأ وفهم أن (الرسالة الكاملية) مؤلف قائم بذاته ومختلف عن (فاضل بن ناطق) الذي يعتبره مؤلفاً آخر. إلا أن يوسف شاخت وماكس مايرهوف كرسّا وقتاً كافياً لدراسة (الرسالة الكاملية) وصدرت طبعة أولى بمقدمة المحققين عربية إنجليزية، ثم صدرت طبعة أخرى أصدرها يوسف شاخت وقدم لها بمقدمة إنجليزية رائعة وتحمل عنوان (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية)، طبع اكسفورد ١٩٦٨م وفيها ينوه المحققان إلى أن (الرسالة الكاملية) هي ذاتها (فاضل بن ناطق). وقد طبع في مصر من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧م.

١٦. طريق الفصاحة:

وهو كتاب في النحو، ومن المعروف أن ابن النفيس كتب في اللغة وعلم البيان، حتى أن بعض معاصريه انتقدوا تأليفه في علوم اللغة دون أن يتمكن منها، لكن عالماً لغوياً معاصراً لابن النفيس، هو ابن النحاس نجده يقول: (لا أرضى بكلام أحد بالقاهرة في النحو، غير كلام ابن النفيس). و لا تعرف للكتاب نسخاً مخطوطة.

http://kotob.has.it

١٧. شرح التنبيه:

كان ابن النفيس من أعلام فقهاء الشافعية في عصره، وكان يقوم بتدريس الفقه في المدرسة المسرورية، واعتبره تقي الدين السبكي ضمن كبار الشافعية الذين ترجم لهم في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) فأورد ترجمته، وأثنى عليه.

وهذا الكتاب شرح وضعه ابن النفيس على كتاب أبي إسحاق إبراهيم الشيرازي (التنبيه) في فروع الفقه الشافعي. والكتاب معروف، ونسبته إلى ابن النفيس ثابتة.. ولكن مخطوطاته مفقودة.

١٨. شرح الهداية:

وهو شرح على كتاب ابن سينا (الهداية) في المنطق، وكلّ من كتاب ابن سينا وشرح ابن النفيس، مذكور في المصادر التاريخية، وكلاهما مفقود.

١٩. شرح الإشارات:

وهو شرح على كتاب ابن سينا الشهير (الإشارات والتنبيهات) وهو كتاب في الفلسفة والمنطق والتصوف، وتوجد عدة طبعات لكتاب الإشارات، كما توجد عدة شروحات وتعليقات عليه أما شرح ابن النفيس فلم يعرف بعد.

٢٠. ثمار المسائل:

ذكر ابن أبي أصيبعة هذا المؤلف لابن النفيس، وربما كان الكتاب هو شرح ابن النفيس على مسائل حنين بن إسحاق، لكننا لا نعرف ذلك يقيناً، إذ لم يحفظ الزمان نسخة من مؤلفات ابن النفيس بهذا العنوان.

٢١. مواليد الثلاثة:

انفرد ابن أبي أصيبعة بذكره.

http://kotob.has.it

٢٢- كتاب النبات مع الأدوية المفردة:

ذكره ابن أبي أصيبعة، وقد مر علينا كتاب لابن النفيس بعنوان: المختار من الأغذية.

٢٣- جامع الدقائق في الطب:

هكذا في ترجمة في عيون الأنباء.

٢٤- رسالة في أوجاع الأطفال:

وهي آخر ما أورده ابن أبي أصيبعة من مؤلفات ابن النفيس... مع ملاحظة أن هذه الرسالة، بالإضافة إلى المؤلفات الأربعة السابقة، لا توجد منها نسخ خطية معروفة في الوقت الحالي.

http://kotob.has.it

٢٥ ـ شرح فصول ابقراط.

ابن النفيس جدول المؤلفات المطبوعة والمخطوطة الجديد

الرقم	اســـم الكتـاب	المحققون	مكان وسنة الطبع
١	الرسـالة الكاملية في السـيرة النبوية (فاضل بن ناطق)	مـاكس مـايرهوف و يوسف شاخت. عبد المنعم محمد عمر	اكشفورد ١٩٦٨ المجلس الاعلى للشـؤون الاسـلامـيـة القـاهرة ١٩٨٥ـ١٩٨٧
٢	الموجز في الطب	عدة تشرات آخرها عـبـد الكريم الغرياوي	المجلس الأعلى للشـؤون الاسلامية، القاهرة ١٩٨٦
٣	شرح تشريح القانون	سلمـان قطايه مراجعة بول غليونجي	الهيئة المصرية العامة للكتلب، القاهرة ١٩٨٨
٤	المهذب في الكحل المجرب	ظافر الوفائي و محمد رواس قلعه جي	المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم الرباط ١٩٨٨ ـ مطبعة سفير الرياض ١٩٩٤
٥	شرح فصول أبقراط	يوسف زيدان وماهر عبد القادر	دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٨ ط١ الدار المصـرية اللبنانيـة، القاهرة ١٩٩٠ ط٢
٦	رسالة الأعضاء	يوسف زيدان	الدار المصـرية اللبنانيـة، القاهرة١٩٩٠
٧	المختار من الأغذية	يوسف زيدان	الدار المصـرية اللبنانيـة، القاهرة ١٩٩٢
٨	المختصر في علوم أصول الحديث	يوسف زيدان	الدار المصـرية اللبنانيـة، القاهرة١٩٩١
٩	بغية الطالبين		
١٠	شرح طبيعة الإنسان لأبقراط		
١١	شرح ابيذيميا (الأوبئة) لأبقراط		
١٢	شرح تشريح جالينوس		
١٣	شرح تقدمة المعرفة لبقراط		
١٤	شرح الكتاب الثالث من القانون		
١٥	شرح كليلت القانون		

http://kotob.has.it

الرقم	اســـم الكتـاب	المحققون	مكان وسنة الطبع
١٦	شـرح المسائل في الطب لحنين بن اسحق (ثمار المسائل)		
١٧	شرح معالجات القانون		
١٨	شرح معاني القانون		
١٩	شرح مفردات القانون		
٢٠	مفتاح الشفاء		
٢١	الوريقات في المنطق		
٢٢	الشامل في الصناعة الطبية (يقع في ٣٠٠ مـجلد بيض منهـا ٨٠ مجلدا وبقي منها ٤٥ مجلدا)		
٢٣	شـرح كـتـاب طبـيـعـة الإنسـان لأبقراط		

ابن النفيس جدول المؤلفات المفقوة حسب يوسف زيدان

م	اسم المخطوط	مكان ذكره
١	جامع الدقائق	
٢	الحكمة	
٣	رسالة في أوجاع الأطفال	
٤	شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا	
٥	شرح التنبيه في فقه الشافعية للشيرازي	
٦	شرح الهداية في المنطق لابن سينا	
٧	طريق الفصاحة في النحو	
٨	رسالة في مواليد ثلاثة	
٩	مقالة في النبض	
١٠	بغاية الإيجاز وبغية المجتاز	مخطوطة شرح معاني القانون
١١	مقالة كيفية الإبصار دون سائر الحواس	متاح الشفاء

http://kotob.has.it

ابن النفيس جدول المؤلفات حسب ماهر عبدالقادر

الرقم	اســـم الكتـاب	يوسف زيدان	ماهر عبدالقادر
١	الشامل في الطب	مخطوط غير مطبوع	وهو كتاب موسوعي في الطب، يشبه موسوعة (الحاوي) لأبي بكر الرازي. تقول المراجع إن هذا الكتاب تدل فهرسته على أنه يقع في ٣٠٠ مجلداً، بيّض منها ابن النفيس ثمانين مجلة(١٨). وذكر العمري في (مسالك الأبصار) أن الثمانين مجلداً التي انتهى منها ابن النفيس، توجد بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة، إلا أن مايرهوف يقول إن الكتاب غير موجود في أية مجموعة شرقية وتعرف من مخطوطات الكتاب: ـ بمتحف الآثار العامة ببغداد، برقم ١٢٧١ . ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة (جزء مصور بالتصوير الشمسي) برقم ٤٢٣ طب / تيمور. ـ نسخة بمكتبة لابن الطبية بجامعة ستانفورد في كاليفورنيا (ثلاثة مجلدات كتبت سنة ٦٤١هـ، على المؤلف) برقم ٢٧٦ . ـ عدة نسخ بمكة بالبودليان بأكسفورد، تحتوي كل نسخة على عدد من مجلدات الكتاب، بأرقام ٢٤٨/٢٩٠/٢٩١/٢٩٢/٥٣٦/٥٣٩ -PO COCKE . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً.
٢	الموجز	كتاب مطبوع	من أشهر كتب ابن النفيس الطبية، يقول عنه حاجي خليفة: هو موجز في الصورة، لكنه كامل في الصناعة وهذا الكتاب أراد فيه ابن النفيس أن يوجز ما ذكره ابن سينا في كتاب (القانون) لكنه لم يتعرض فيه لموضوعات التشريح، التي أفرد لها كتاباً آخر وتوجد من هذا الكتاب عشرات النسخ المخطوطة في مكتبات العالم، وفي دار الكتب المصرية وحدها توجد ١٣ مخطوطة للكتاب، كتبت في تواريخ مختلفة، ولهذا الكتاب شروح، منها: ١ـ شرح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحكيم السويدي، المتوفى ٦٩٠هـ. ٢ـ شرح سديد الدين الكازروني، المتوفى ٧٤٥هـ. ٣ـ شرح جمال الدين الأقصراني ، المتوفى ٧٧٩هـ. ٤ـ شرح ، المتوفى نفيس بن عوض الكرماني المتوفى ٨٥٣هـ. ٥ـ شرح محمد بن أحمد الأمشاطي، المتوفى ٩٠٢ .

http://kotob.has.it

			٦ـ شرح أحمد بن إبراهيم الحلبي، المتوفى ٩٧١ . ٧ـ شرح قطب الدين الشيرازي (؟). ٨ ـ شرح محمد الإبجي البليلي (؟). وطبع الكتاب (طبعة حجر رديئة) بدلهي سنة ١٣٣٢ هـ، بعنوان: الموجز المحشي، كما طبع شرح الأقصراني بلكنئو سنة ١٢٩٤هـ، بعنوان: حل الموجز. وطبع شرح نفيس بن عوض بالهند سنة ١٣٢٨هـ، مع حاشية لمحمد بن عبد الحليم اللكنوي المتوفى ١٢٨٥هـ. ونقل الكتاب للغة التركية مرتين، قام بإحداهما مصلح الدين بن شبعان المعروف بسروري (توفى ٨٦٩هـ) وقام بالترجمة الأخرى أحمد بن كمال الطبيب بدار الشفاء بأدرنه. وترجم إلى اللغة العبرية بعنوان (سفر همّوجز) وإلى الإنجليزية بعنوان (المعني في شرح الموجز).
٣	المهذّب في الكحل المجرب	كتاب مطبوع	وهو كتاب في الكحالة (طب العيون) وتوجد منه نسخ بعنوان: المهذّب وتوجد منه نسخ بعنوان: المهذّب في الكحل المجرّب، ونسخ بعنوان: المهذّب في طب العيون. ويقال إن الكتاب حاز في زمانه شهرة واسعة، ولذا ذكرته معظم المصادر. ومن مخطوطات الكتاب: ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ٤٠٥ طب / تيمور. ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٨٤٤ طب . ـ نسخة بالفاتيكان، برقم ١٣٠٧ . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً. (حققه ظافر الوفائي ومحمد روا وقلعة جي وطبع في المغرب الرباط ١٩٨٨ ثم في الرياض ١٩٩٤)
٤	شرح كليات القانون	مخطوط غير مطبوع	وهو شرح لكليات كتاب القانون لابن سينا، يقول ابن النفيس في مقدمته: (فإن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا) وتوجد مخطوطاته: ـ نسخة ضمن مجموعة برقم ٢٦١٢٨/ جامعة القاهرة. ـ نسخة (ناقصة من أولها) بدار الكتب المصرية، برقم ١٣٩٥ (ميكروفيلم ٣١٣٩٤). ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٨٥٠/ طب (ميكروفيلم ٣١٣٠٧). ـ نسخة أخرى بدار الكتب المصرية، بالرقم السابق / طب (ميكروفيلم ١٨٦٧٤). ـ نسخة بأكاديمية طب نيويورك. وتوجد ترجمة لجزء من الكتاب للغة اللاتينية، قام بها الطبيب الإيطالي (ألباجو) الذي يعتبر حلقة الوصل بين ابن النفيس والأطباء الأوربيين. ولا يزال الكتاب مخطوطاً.

http://kotob.has.it

٥	شرح مفردات القانون	مخطوط غير مطبوع	كتاب غير معروف تماماً لابن النفيس، أشار بروكلمان إلى وجود نسخة فريدة منه بمكتبة آيا صوفيا بتركيا ن برقم ٣٦٥٩ .
٦	شرح تشريح القانون	كتاب مطبوع	وهو الكتاب الذي سجل فيه ابن النفيس اكتشافه للدورة الدموية الرئوية، قبل ظهور كتاب وليم هارفي (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان) ـ الذي ظهر سنة ١٦٢٨ محدثاً ضجة في الأوساط العلمية ـ بمئات الأعوام. وتوجد عدة مخطوطات للكتاب، منها: ـ نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق، برقم ٣١٤٥ (الرقم الجديد ٥٩ طب). ـ نسخة بآيا صوفيا باستنبول، برقم ٤١٩٩. ـ نسخة برلين رقم ٦٢٢٤٣، التي اعتمد عليها د/ التطاوي، ولا يزال الكتاب ـ مثل سائر كتب ابن النفيس ـ مخطوطاً (حققه سلمان قطايه وطبع في القاهرة ١٩٨٨).
٧	تفاسير العلل وأسباب الأمراض		انفرد بروكلمان بذكر هذا المؤلف لابن النفيس، معتمداً على وجود نسخة خطية منه.
٨	المختار من الأغذية	كتاب مطبوع	وهو كتاب يعني بالغذاء في الأمراض الحادة ـ مر علينا كتاب لابقراط في نفس الموضوع ـ ذكره غليونجي اعتماداً على ما أورده (الواردت) من وجود مخطوطة منه ببرلين.
٩	بغية الطالبين وحجة المتطببين	مخطوط غير مطبوع	أورده عمر كحاله، ولم نقع على ذكر لأية مخطوطات من هذا الكتاب.
١٠	مقالة في النبض	مفقود	يقول العمري ـ وغيره من المؤرخين ـ إن ابن النفيس كان مرة في (الحمام) الموجود بباب الزهومة، وبينما هو يغتسل، خرج وطلب دواة وأوراق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وأكمل اغتساله.
١١	شرح مسائل حنين بن إسحاق (ثمار المسائل)	مخطوط غير مطبوع	وهو شرح لكتاب حنين بن إسحاق العبادي (مسائل في الطب للمتعلمين) الذي تناوله بالشرح عدد من الأطباء، منهم ابن أبي صادق النيسابوري وابن النفيس.. وتوجد من مخطوطات شرح ابن النفيس: ـ نسخة ببرلين، برقم ١٠٤٠. ـ نسخة بليدن، برقم ١٣٠٤ .
١٢	شرح كتاب أبيديميا	مخطوط غير مطبوع	وهو شرح وضعه ابن النفيس على كتاب الأوبئة (أبيديميا) لأبقراط. وتوجد له عدة نسخ مخطوطة منها: ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة، برقم ٥٨٣طب / طلعت. ـ نسخة بآيا صوفيا، برقم ٣٦٤٢/أ. وعنوان الكتاب عند بروكلمان، شرح أبيديميا لأبقراط وتفسير المرض الوافد، وذلك اعتماداً منه على (ريتر) ونسخة آيا صوفيا، أما نسخة القاهرة فهي بعنوان:شرح كتاب أبيديميا

http://kotob.has.it

١٣	شرح تقدمة المعرفة لأبقراط	مخطوط غير مطبوع	وهو شرح على كتاب (تقدمة المعرفة) الذي يبدأه أبقراط بقوله: (إني أرى أن يستعمل الطبيب سابق النظر). ويظهر في شرح ابن النفيس أسلوبه العلمي ومنهجيته، فهو يبدأ في شرح هذه الفقرة بقوله: (النظر يقال على معاني، المشهور منها ستة. أحدها تأمل الشيء بالعين، وثانيها الانتظار، وثالثها المقابلة فيقال دور مناظرة أي متقابلة، ورابعها العناية يقال نظر الله إلى فلان أي اعتنى به. وخامسها الفكر والروية. وسادسها العلم.
١٤	شرح تشريح جالينوس	مخطوط غير مطبوع	توجد نسخة من هذا الكتاب بآيا صوفيا (برقم ٣٦٦١) إلا أن نسبة هذا الشرح لابن النفيس ليست أكيدة. ومن المعروف أن ابن النفيس لم يكن يستحسن كلام جالينوس كثيراً، في حين كان يقدر أبقراط تقديراً عميقاً. ومع ذلك، فإن التحقق من نسبة الكتاب لابن النفيس ينبغي أن تكون بعد دراسة لهذا الشرح، ومقارنته بشروح ابن النفيس على مؤلفات أبقراط وابن سينا.
١٥	الرسالة الكاملية	كتاب مطبوع	كتاب لابن النفيس في السيرة النبوية، عنوانه كاملاً (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) وقد أشارت بعض المصادر إلى هذا الكتاب، وذكر بروكلمان أن له نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة. وهذا الكتاب تعرض لبعض اللبس في الفهم،إذ اعتقد أنه يختلف عن عنوان آخر ذكر في بعض المراجع باسم (فاضل بن ناطق)، ولكن هذا غير صحيح. إذ أن ابن النفيس كتب الرسالة الكاملية أساساً ليعارض بها رسالة ابن سينا المسماة (حي بن يقظان) وكذا ابن الطفيل. وقد ذكر العمري في ترجمته لابن النفيس أنه: انتصر في هذا الكتاب لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم. وأبدع فيه ودل على تمكنه من العلوم العقلية. يقول ماهر عبد القادرمحمد علي في مقدمته في تاريخ الطب العربي: «ويبدو أن بروكلمان وقع في ذات الخطأ وفهم أن (الرسالة الكاملية) مؤلف قائم بذاته ومختلف عن (فاضل بن ناطق) الذي يعتبره مؤلفاً آخر. إلا أن يوسف شاخت وماكس مايرهوف كرسّا وقتاً كافياً لدراسة (الرسالة الكاملية) وصدرت طبعة أولى بمقدمة المحققين عربية إنجليزية، ثم صدرت طبعة أخرى أصدرها يوسف شاخت وقدم لها بمقدمة إنجليزية رائعة وتحمل عنوان (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية)، وفيها ينوه المحققان إلى أن (الرسالة الكاملية) هي ذاتها (فاضل بن ناطق). لذا أردنا التنويه والإشارة إلى الخطأ الذي وقعت فيه بعض الكتابات حول هذا المؤلف. حققه عبدالمنعم محمد عمر، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧م.

http://kotob.has.it

١٦	طريق الفصاحة في النحو	مفقود	وهو كتاب في النحو، ومن المعروف أن ابن النفيس كتب في اللغة وعلم البيان، حتى أن بعض معاصريه انتقدوا تأليفه في علوم اللغة دون أن يتمكن منها، لكن عالماً لغوياً معاصراً لابن النفيس، هو ابن النحاس نجده يقول: (لا أرضى بكلام أحد بالقاهرة في النحو، غير كلام ابن النفيس). و لا تعرف للكتاب نسخاً مخطوطة.
١٧	شرح التنبيه في فقه الشافعية للشيرازي	مفقود	كان ابن النفيس من أعلام فقهاء الشافعية في عصره، وكان يقوم بتدريس الفقه في المدرسة المسرورية، واعتبره تقي الدين السبكي ضمن كبار الشافعية الذين ترجم لهم في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) فأورد ترجمته، وأثنى عليه. وهذا الكتاب شرح وضعه ابن النفيس على كتاب أبي إسحاق إبراهيم الشيرازي (التنبيه) في فروع الفقه الشافعي. والكتاب معروف، ونسبته إلى ابن النفيس ثابتة.. ولكن مخطوطاته مفقودة.
١٨	شرح الهداية في المنطق لابن سينا	مفقود	وهو شرح على كتاب ابن سينا (الهداية) في المنطق، وكلٌ من كتاب ابن سينا وشرح ابن النفيس، مذكور في المصادر التاريخية، وكلاهما مفقود.
١٩	شرح الإشارات والتنبيهات	مفقود	وهو شرح على كتاب ابن سينا الشهير (الإشارات والتنبيهات) وهو كتاب في الفلسفة والمنطق والتصوف، وتوجد عدة طبعات لكتاب الإشارات، كما توجد عدة شروحات وتعليقات عليه أما شرح ابن النفيس فلم يعرف بعد.
٢٠	ثمار المسائل		ذكر ابن أبي أصيبعة هذا المؤلف لابن النفيس، وربما كان الكتاب هو شرح ابن النفيس على مسائل حنين بن إسحاق، لكننا لا نعرف ذلك يقيناً، إذ لم يحفظ الزمان نسخة من مؤلفات ابن النفيس بهذا العنوان
٢١	مواليد الثلاثة	مفقود	انفرد ابن أبي أصيبعة.
٢٢	كتاب النبات مع الأدوية المفردة		ذكره ابن أبي أصيبعة، وقد مر علينا كتاب لابن النفيس بعنوان: المختار من الأغذية.
٢٣	جامع الدقائق في الطب	مفقود	هكذا في ترجمة في عيون الأنباء.
٢٤	رسالة في أوجاع الأطفال	مفقود	وهي آخر ما أورده ابن أبي أصيبعة من مؤلفات ابن النفيس... مع ملاحظة أن هذه الرسالة، بالإضافة إلى المؤلفات الأربعة السابقة، لا توجد منها نسخ خطية معروفة في الوقت الحالي.
٢٥	شرح فصول أبقراط	كتاب مطبوع	
٢٦	رسالة الأعضاء	كتاب مطبوع	

http://kotob.has.it

٢٧	المختصر في علم أصول الحديث	كتاب مطبوع	
٢٨	الحكمة	مفقود	
٢٩	شرح معاني القانون	مخطوط غير مطبوع	
٣٠	الوريقات في المنطق	مخطوط غير مطبوع	
٣١	شرح الكتاب الثالث من القانون	مخطوط غير مطبوع	
٣٢	مفتاح الشفاء	مخطوط غير مطبوع	
٣٣	بغاية الإيجاز وبغية المجتاز	مفقود	
٣٤	مقالة كيفية الإبصار دون سائر الحواس	مفقود	
٣٥	شرح طبيعة الإنسان لأبقراط	مخطوط غير مطبوع	

http://kotob.has.it

ابن النفيس جدول المؤلفات مقارنه بين المؤرخين

الرقم	اســـم الكتـاب	يوسف زيدان	ماهر عبدالقادر	مصطفي الشكعة	إبراهيم بن مراد	
١	الشامل في الطب	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه	ذكر اسمه	
٢	الموجز في الطب	كتاب مطبوع	كتاب مطبوع	ذكر اسمه	ذكر اسمه	
٣	المهـــذّب في الكحل المجرب	كتاب مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه	ذكر اسمه	
٤	شرح كليات القانون	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
٥	شرح مفردات القانون	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه	ذكر اسمه	
٦	شرح تشريح القانون	كتاب مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
٧	تفاسير العلل وأسباب الأمراض		مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
٨	المختار من الأغذية	كتاب مطبوع	كتاب مطبوع	ذكر اسمه		
٩	بغية الطالبين وحجة المتطبيين	مخطوط غير مطبوع	مفقود	ذكر اسمه		
١٠	مقالة في النبض	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
١١	شرح مسائل حنين بن إسحاق (ثمار المسائل)	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
١٢	شرح كتاب أبيديميا	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
١٣	شرح تقدمة المعرفة لإبقراط	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه عن بول غليونجي		
١٤	شرح تشريح جالينوس	مخطوط غير مطبوع	مخطوط غير مطبوع	ذكر اسمه		
١٥	الرسالة الكاملية	كتاب مطبوع	كتاب مطبوع			
١٦	طريق الفحاصة في النحو	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
١٧	شرح التنبيه في فقه الشافعية للشيرازي	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
١٨	شـــرح الهـــداية في المنطق لابن سينا	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
١٩	شـــرح الإشـــارات والتنبيهات	مفقود	مفقود			
٢٠	ثمار المسائل		مفقود			
٢١	مواليد الثلاثة	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		

http://kotob.has.it

الرقم	اســـم الكتـاب	يوسف زيدان	ماهر عبدالقادر	مصطفي الشكعة	إبراهيم بن مراد	
٢٢	كتـاب النبـات مع الأدوية المفــردة؟ (المخـتــار من الأغذية)		مفقود	ذكر اسمه		
٢٣	جــامع الدقــائق في الطب	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
٢٤	رســـالة في أوجـــاع الأطفال	مفقود	مفقود	ذكر اسمه		
٢٥	شرح فصول أبقراط	كتاب مطبوع		ذكر اسمه عن بول غليونجي		
٢٦	رسالة الأعضاء	كتاب مطبوع				
٢٧	المخـتـصـــر في علم أصول الحديث	كتاب مطبوع		ذكر اسمه		
٢٨	الحكمة	مفقود				
٢٩	شرح معاني القانون	مخطوط غير مطبوع				
٣٠	الوريقات في المنطق	مخطوط غير مطبوع				
٣١	شـرح الكتـاب الثـالث من القانون	مخطوط غير مطبوع				
٣٢	مفتاح الشفاء	مخطوط غير مطبوع				
٣٣	بغـاية الإيجـاز وبغـيـة المجتاز	مفقود				
٣٤	مقـالة كيفـية الإبصار دون سائر الحواس	مفقود				
٣٥	شـرح طبيعـة الإنسـان لأبقراط	مخطوط غير مطبوع			ذكر اسمه	
٣٦	تـعليق علي كـــتـــاب الأوبئة					
٣٧	شـرح الأهوية والأمــاكن	مفقود				
	والبلدان لأبقراط					

- مصطفى الشكعه الموسوعية العلمية الإسلامية وابن النفيس ص٧٣ -٧٦ .
- يوسف زيدان مؤلفات ابن النفيس المخطوطة استكشاف وتحليل ص ٩٧-١١٢
- ابراهيم بن مراد ابن النفيس الطبيب مقارنة بابن سينا نظرات في مادة علم الطب ومنهج معالجته بين ابن النفيس وابن سينا ص: ٤٠١ - ٣٩ .

في ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف، الندوة التراثية الثانية الكويت
اشراف وتقديم عبد الرحمن العوضي تحرير عبد الحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر. دولة الكويت سلسلة مطبوعات المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية الثانية ١٩٩٩ .

- ماهر عبد القادر على مقدمة في تاريخ الطب العربي دار العلوم العربية بيروت لبنان ١٩٨٨ .

http://kotob.has.it

الفصل الرابع

الدورة الدموية الصغرى

ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية الرئوية وانتقال النظرية إلى أوربا

يقول عبد الكريم شحادة(*) في بحث أصيل عن الموضوع: «يُعد اكتشاف الدورة الدموية الرئوية من الحوادث الكبرى في عالم الطب، ويُعزى هذا الاكتشاف إلى العالم الإنجليزي وليم هارفي(١) Harvey William (1578- 1657) الذي وصف دوران الدم في جسم الإنسان في كتابه (دراسة تشريحية لحركة القلب والدم في الحيوان Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus الذي ظهر في لندن عام ١٦٢٨». وكان هذا الكشف قد بني على ارهاصات من عدد من علماء النهضة في أوروبا في القرن السادس عشر، أمثال: سيرفيتوس(٢) Servitus (1511-1553) وفيزاليوس(٣) Vesalius (1514-1554) وكولمبو(٤) Colombo (1520- 1559) وسيزالبينو(٥) Cesalpion (1519 - 1603) ، وغيرهم من علماء جامعة بادوفا Padova في إيطاليا، بخاصة، وعلماء الجامعات الأوربية الأخرى، بعامة».

وكان ابن النفيس سبق الجميع في وصف دوران الدم في القلب والرئتين وصفا علميا صحيحا منذ القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، أي

---

(1) Harvey, W., 1628 , Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus)
ترجمة بول غليونجي ـ تراث الإنسانية ـ المجلد الثالث ـ العدد الثالث /٥/ ـ ص ٣٤٨ ـ القاهرة.

(2) Servet, M. dictionnaire biographique des auteurs, T.2, p. 532. edit. S. E. D. E. Paris 1956.

(3) Vasele, A (ref. 2), T.2. p. 669.

(4) Colombo, R., Grand dictionnaire encyelopedique Larousse - 1982.

(5) Cesalpino, A. (ref. 2), T.2. p. 283.

(*) عبدالكريم شحاده أسبقية ابن النفيس في وصف الدورة الدموية الرئوية العوضي الجندي وآخرون . الندوة التراثية الثانية عن ابن النفيس . الكويت ١٩٩٩م.

http://kotob.has.it

قبل وليم هارفي بأربعة قرون تقريبا. وقام كل من الطبيب المصري محيي الدين التطاوي (١٨٩٦ - ١٩٤٥) وعبد الكريم شحاده بتقديم رسالتي دكتوراه تثبت هذا الكشف والأسبقية: الدكتور محيي الدين التطاوي (١٨٩٦ - ١٩٤٥) الذي ناقش أطروحته باللغة الألمانية، عام ١٩٢٤ في جامعة فرايبورغ في ألمانيا، وعنوانها (الدورة الدموية تبعا للقرشي[٦] . (Der Iungenkreislauf nach el- Korachi) والدكتور عبد الكريم شحاده الذي ناقش اطروحته، باللغة الفرنسية عام ١٩٥١، في كلية الطب في باريس (ابن النفيس واكتشاف الدوران الرئوي [٧]

(Ibn An - Nafis et la decouverte de la circulation pulmouaire)،

ولقد تلقى ومؤرخو العلم الغربيون هذا الحادث العلمي الهام بكثير من الريبة والحذر، وأثاروا حوله الشكوك [٨]، وناقشوه طويلا، إلى أن تيقنوا من صحته، وأصبح حقيقة علمية لديهم، أثبتوها في مؤلفاتهم، ورددوها في ندواتهم ومحاضراتهم. ومن مظاهر النكران ان بعض الباحثين حاول نفي وجود عالم عربي اسمه ابن النفيس [٩][١٠][١١].

حديثا؛ أثبت عبد الكريم شحادة صحة اكتشاف الدورة الدموية الرئوية فيما ورد في كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس و أثبت أن نظرية ابن النفيس وفكرته حول دوران الدم في القلب والرئتين قد نقلت من دمشق إلى

(6) 956. Couverte de la circulation pulmonaire,eA-K.,Ibn An-nafis et ladehadech Inst.Fr.de Damas

(7) Doktorwrde, Freiburg im Nrsgau, 1624.

(8) Sarton, G. Introduction to the history of science - 5 vol. R. Krieger, New York, 1975.

(9) Curieses del Agua, A. Gacet. Med. Espan., nos 491, p. 311; 493, p. 365.

(10) Arnakdez,R.et Autres-la dcience antique et medievale, p.470.Presse Universitaire De France, 1957.

(١١) الدكتور حسن علي إبراهيم - وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة الخامسة والخمسين.

http://kotob.has.it

أوروبا في القرن السادس عشر، عن طريق جامعة بادوفا في إيطاليا، واقتبسها أساتذة هذه الجامعة أولا، ثم أخذها عنهم علماء الجامعات الأوربية الأخرى، ومنهم العالم الإنجليزي هارفي الذي كان قد أتم دراسته الطب في جامعة بادوفا قبل أن يعود إلى بلده الأصلي لندن، ويستقر فيها، وينشر كتابه الشهير، الذي مر ذكره.

وفي بحثه الممتاز المقدم للندوة التراثية في الكويت ١٩٩٧ أجرى الدكتور عبد الكريم شحادة مقارنة بين مفاهيم الدورة الدموية قبل ابن النفيس وما قاله وما هو مثبت في العصر الحالي. وذلك في تحليل منهجي صارم يعتبر مثلا يقتدى للبحث. نورده هنا لفائدة أبنائنا الباحثين كما جاء بقلم الباحث الأصلي وموافقته الكريمة. وكما شرح ذلك مع بعض التصرف.

الدورة الدموية حسب المفاهيم المعاصرة:

من المعروف، في أيامنا هذه، أن العضلة القلبية ـ وهي المضخة المركزية في حركة الدم ودورانه ـ تنقسم إلى قسمين: أيمن وأيسر، وكل واحد من هذين القسمين يتألف من جزأين: علوي وهو الأذينة Atrium وسفلي وهو البطين Ventricle، وهذان الجزءان يتصل أحدهما بالآخر بواسطة فوهات تدعي الصمامات Valvae، بينما يفترق القسم الأيمن من القلب عن القسم الأيسر افتراقا كاملا بواسطة حاجز سميك جدا، يدعي الحاجز بين البطينين Septum interventriculare cordis .

ومن المعروف، أيضا، أن الدورة الكاملة، تقسم إلى قسمين:

(١) الدورة الدموية الصغرى، وتسمى الدورة الرئوية، أيضا:

تبتدئ من البطين الأيمن، وتنتهي في البطين الأيسر.

http://kotob.has.it

ينقبض البطين الأيمن فيندفع الدم المشبع بغاز الفحم إلى الرئة، بواسطة الشريان الرئوي، حيث يختلط بالهواء، فيصفي وينقي، ثم يعود بواسطة الأوردة الرئوية إلى الأذينة اليسرى فالبطين الأيسر، صافيا نقيا مشبعا بالأوكسجين (مولد الحياة).

(٢) الدورة الدموية الكبري:

تبتدئ من البطين الأيسر، وتنتهي في البطين الأيمن.

ينقبض البطين، الأيسر، فيندفع الدم النقي المشبع بالأوكسجين (والحياة)، وينتقل بواسطة الأبهر ثم بالشرايين المتفرعة عنه، ويتوزع على جميع أجهزة الجسم وأعضائه. ثم يعود هذا الدم، بواسطة الأوردة إلى الأذينة اليمنى فالبطين الأيمن مثقلا بغاز الفحم والفضلات.

وعلى هذا، فالدورة الدموية الصغرى هي القسم الهام الذي تشترك فيه الأجهزة الرئيسية (القلب والرئتان والشرايين والأوردة)، وهي مدار البحث والاختلاف.

أما الدورة الدموية الكبرى، فهي الامتداد والتكملة والتفرعات للدورة الدموية الصغرى، وبواسطتها يتوزع الدم على جميع أجهزة الجسم وأعضائه. وهي معروفة ولا خلاف عليها، ومتفق على كثير من دقائقها.

الدورة الدموية حسب مفاهيم جالينوس وابن سينا:

لنر الآن كيف كان ينظر الأقدمون إلى حركة الدم في الجسم:

اعتقد جالينوس وابن سينا من بعده بأن الدم يتشكل في الكبد، حيث ينقل إليه الوريد البابي الأغذية من الأمعاء بعد هضمها وتحضيرها، فتتحول فيه إلى دم، ومن الكبد يتوزع هذا الدم بواسطة الأوردة ـ ومنها الوريد الأجوف ـ على جميع أجهزة الجسم وأعضائه.

http://kotob.has.it

وكان قسم من الدم يصل إلى البطين الأيمن من القلب بواسطة الوريد الأجوف. وفي البطين الأيمن يتخلص هذا الدم مما يكون قد علق به من شوائب، ويسخن، ويترقق، ثم يعود مطهرا بعد هذه العملية التحضيرية إلى الأوردة ومنها إلى الأعضاء. ويمر قسم من الدم المسخن المرقق إلى البطين الأيسر عبر منافذ غير مرئية كائنة في الحاجز بين البطينين.

وفي البطين الأيسر يختلط الدم مع الهواء الآتي من الرئتين بواسطة الشرايين الوريدية (أي الأوردة الرئوية). ومن هذا الخليط (الدم المسخن والهواء) تتولد الروح في البطين الأيسر الذي يوزعها بدوره على الجسم كله بواسطة الشريان الأبهر.

وتبعا لهذه النظرية، فالأوردة تحمل الدم فقط، بينما تحمل الشرايين الهواء والروح.

والروح - بحسب مفاهيم حالينوس - إما أن تكون (روحا طبيعية) وهي التي تتشكل في الكبد، وتنقلها الأوردة منه إلى البطين الأيمن من القلب، وإما أن تكون (روحا حيوانية) وهي التي تتشكل في البطين الأيسر، وتنقلها الشرايين الرئوية - أي الأوردة الرئوية - والشريان الأبهر).

كما أن فكرة دوران الدم واتجاهه لم تكن معروفة أصلا وإنما توجد حركة متواصلة للدم بين مد وجزر ورواح ومجيء.

أما الرئة فتقوم بتبريد الدم ذي الحرارة المرتفعة.

تلك هي النظرية التي كانت سائدة قبل ابن النفيس .

ونجد ابن سينا يتبنى هذه المفاهيم في حركة الدم في القلب والرئتين والأوردة والشرايين، وفي تولد الروح، ورددها في كتابه الشهير (القانون)

http://kotob.has.it

حينما تكلم على تشريح الشريان الوريدي [١٢] (أي الوريد الرئوي)، وعلى تشريح القلب [١٣].

بقيت هذه النظريات لاتقبل المناقشة كأنها قوانين أزلية ثابتة لا يداخلها الشك، إلى أن جاء ابن النفيس وتجرأ على جالينوس وابن سينا وانتقدهما بآراء صريحة لا تقبل الشك والغموض، وبعبارات قوية تدل على تمكن صاحبها من صواب رأيه وقوة حجته، مثل قوله:

«هذا هو الرأي المشهور، وهو عندنا باطل»، ومثل قوله: «لا يصح البتة» أو «هذا من عندنا من الخرافات» أو «هذا ظاهر البطلان» أو «هذا الكلام في غاية الفساد» أو «وقد بينا أن لا وجود له» أو «فمما لا أعتقد له وجودا» أو «والحق أنه ليس كذلك» ...

الدورة الدموية الرئوية حسب وصف ابن النفيس:

هذا نص نظرية ابن النفيس في دوران الدم في القلب والرئتين والأوردة والشرايين، كما وردت، بالحرف الواحد، في كتابه (شرح تشريح القانون) الذي ألفه في القاهرة، حوالي منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، في معرض كلامه على تشريح الشريان الوريدي (الوريد الرئوي):

«والذي نقوله نحن ـ والله أعلم ـ أن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح، وهي إنما تكون من دم رقيق جدا شديد المخالطة لجرم هوائي، فلا بد وأن يحصل في القلب دم رقيق جدا وهواء ليمكن أن تحدث الروح من الجرم المختلط منهما، وذلك حيث تولد الروح وهو في التجويف الأيسر من تجويفي القلب. ولابد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف يتلطف فيه الدم

(١٢) القانون في الطب ـ ابن سينا ـ الجزء الأول ـ ص ٥٩ ـ دار صادر ـ بيروت.
(١٣) القانون في الطب ـ ابن سينا ـ الجزء الثاني ـ ص ٢٦١ ـ دار صادر ـ بيروت.

http://kotob.has.it

ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتهما جسم مشابه الأجزاء، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن، فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح. ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر، كما ظنه جماعة، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس، فإن مسام القلب هناك مستحصفة وجرمه غليظ. فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني إلى الرئة لينبث في جرمها ويخالط الهواء ويصفي ألطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدي ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب وقد خالط الهواء وصلح لأنه تتولد منه الروح، وما بقى من أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها [١٤] .

ويقول في مكان آخر، في معرض كلامه على تشريح القلب:

«قوله ـ أي قول ابن سينا ـ (وفيه ثلاثة بطون): هذا الكلام لا يصح، فإن القلب له بطنان فقط: أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر. ولا منفذ بين هذين البطنين البتة، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها. والتشريح يكذب ما قالوه والحاجز بين البطينين أشد كثافة من غيره، لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو من الروح فتضيع. فلذلك قول من قال: إن ذلك الموضع كثير التخلخل باطل. والذي يوحيه له ذلك ظنه أن الدم الذي في البطين الأيسر إنما ينفذ إليه من البطين الأيمن من هذا التخلخل باطل، فإن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده في البطين الأيمن، كما قررنا أولا» [١٥].

(١٤) شرح تشريح القانون ـ ابن النفيس ـ تحقيق الدكتور سلمان قطاية ـ ص ٢٩٣ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ـ ١٩٨٨ .

(١٥) المصدر السابق ـ ص ٣٨٨.

http://kotob.has.it

ويؤكد في مكان آخر أن اتجاه الدم في دورانه واحد وثابت، أي أنه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة إلى التجويف الأيسر.

فيقول قوله - أي قول ابن سينا - (وإيصال الدم الذي يغذي الرئة من القلب - ويقصد القلب الأيسر - هذا هو الرأي المشهور)، وهو عندنا باطل، فإن غذاء الرئة لا يصل إليها من هذا الشريان - ويقصد الشريان الوريدي - لأنه لا يرتفع إليها من التجويف الأيسر من تجويفي القلب، إذ الدم الذي في هذا التجويف إنما يأتي من الرئة لا أن الرئة آخذه منه، وأما نفوذ الدم من القلب الذي في التجويف إنما يأتي إليه من الرئة لا أن الرئة أخذه منه. وأما نفوذ من القلب إلى الرئة فهو في الوريد الشرياني [١٦].

نستطيع أن نستخلص مما تقدم من أقوال ابن النفيس في دوران الدم في القلب والرئة ما يأتي:

١- وجوب مرور الدم من البطين الأيمن، بعد تلطفه وترققه، إلى الرئة، بواسطة الوريد الشرياني (الشريان الرئوي)، لينبث في جرمها ويخالط الهواء الآتي من الأنف والفم.

٢ - انتقال الدم المصفى والمخالط للهواء من الرئة إلى البطين الأيسر بواسطة الشريان الوريدى (الوريد الرئوي).

٣- تولد الروح في البطين الأيسر.

٤- عدم جواز مرور الدم من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر، رأسا، عبر المنافذ الوهمية الكائنة في الحاجز بين البطينين، والتي أنكر وجودها وكذبه تكذيبا قاطعا.

(١٦) المصدر السابق - ص ٢٩٤.

http://kotob.has.it

٥ ـ اتباع الدم في سيره وجهة ثابتة، فهو يصعد من البطين الأيمن إلى الرئة، ويختلط بالهواء ثم ينفذ إلى البطين الأيسر، حيث تتولد الروح التي يوزعها الشريان الأبهر بدوره على الجسم كله.

٦ ـ نفي رجوع الدم من البطين الأيسر إلى الرئة.

معرفة تشريحية عن تغذية القلب والمعدة والأمعاء والمرارة والكحلة:

كيف توصل ابن النفيس إلى اكتشافه؟:

أما كيف توصل ابن النفيس إلى هذا الاكتشاف العظيم، فلا يمكن إعطاء رأي قاطع فيه.

يقول مايرهوف Meyerhof [١٧] : «لقد تم ذلك نتيجة فرضية موفقة Une heureuse hypothese. » ويقول شاخت: Schacht[١٨] لقد توصل ابن النفيس إلى ذلك بطريق الاستنتاج».

يعتقد أن ابن النفيس قد شرّح الحيوانات، كما يعتقد أنه قد شرّح جثة الإنسان[١٩] خفية، وإن كان قد صرّح في مقدمة كتابه (شرح تشريح القانون) قائلا: «وقد صدّنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما في أخلاقنا من رحمة» [٢٠] لأنه ربما كان يخفي عن الآخرين ما يقوم به ويتستر بأقواله هذه خشية حنقهم وحتى رجال الدين الذين كانوا يستنكرون مباشرة التشريح في ذلك الزمن.

(17) Meyerhof, J., La decouverte de la circulation pulmonaire par Ibn An-Nafis - Bulletin de l'Institut d'Egypte- tome 16 - session 1933-1934-Le Caire 1934.

(18) Schacht, J. Ibn An-Nafis, Servetus and Colombo. Al-Andalus - 1957, 22, 317-336.

(19) Catahier, S. Histoire de la dec. De la P. circ. Sang. Pp. Rabat 1989.

(٢٠) المصدر (١٤) ـ ص ١٧ .

http://kotob.has.it

وإلا فما معنى أقواله: «ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب مصمت ليس فيه منفذ ظاهر، كما ظنه جماعة، ولا منفذ غير، كما ظنه جالينوس» [٢١].

وكيف يُفسر توصل ابن النفيس إلى معرفة أن العضلة القلبية بأوعيتها الخاصة بها (أي الشرايين الإكليلية)، وهو أول من اكتشف تلك الشرايين، وتكلم على وظيفتها، ولم يسبقه أحد إلى ذلك، ادّعى مؤرخو الطب الغربيون أن ب. أوستاشي [٢٢] B, Eustachi (١٥٧٤م) هو أول من وصف الشرايين الإكليلية وتكلم عليها.

وفي ذلك يقول ابن النفيس: «وجعله ـ أي وجعل ابن سينا ـ الذي في البطين الأيمن منه يغتذي القلب، لا يصح البتة، فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المنبث فيه من العروق المنبثة في جرمه » [٢٣].

وكيف يُفسر استنكار ابن النفيس اتصال المرارة بالمعدة والأمعاء الصفراء إليهما ـ كما يعتقد القدماء ومنهم ابن سينا ـ: «وهذا لا محالة باطل، فإن المرارة شاهدناها مرارا ولم نجد ما ينفذ إلى المعدة ولا إلى الأمعاء» [٢٤] .

وكيف وأكّد أن العضلات المحركة لمقلة العين ست لا ثلاث ولا أربع ولا خمس. «فلذلك كانت العضلات المحركة للمقلة، وقد قيل إنها خمس، وهو ظاهر الفساد» [٢٥] .

وكيف يجزم ويردد بكل قوة وجرأة وتشديد «وهذا ظاهر البطلان»، و«الحاجز بين البطينين أشد كثافة من غيره»، و «فكثيرا ما رأيت الأمر على خلاف ما أدّعوا أنهم صادفوه بالتشريح»، و«التشريح يكذب ما قالوه».

(٢١) المصدر (١٤) ـ ص ٢٩٣.
(٢٢) Eustachi, B. Ref. (4).
(٢٣) المصدر (١٤) ـ ص ٣٨٩.
(٢٤) المصدر (١٤) ـ ص ٤١٥.
(٢٥) المصدر (١٤) ـ ص ١٦١.

http://kotob.has.it

أي تشريح هذا؟

أهو تشريح جالينوس ومن سبقه؟

إنه يطعن في هذا التشريح وينعته بالكذب والبطلان.

ويصرّح في مكان آخر بأنه اعتمد في صور الأعضاء الباطنة وأوضاعها على كلام من تقدمه من المباشرين للتشريح، وخاصة الفاضل جالينوس، «إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ: أو أن إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها» (٢٦) .

أية مشاهدة هذه؟

أليست مشاهدة ابن النفيس ذاته الذي تحرر من سيطرة التبعية العمياء لهؤلاء الأفاضل أبقراط وجالينوس وابن سينا ؟

وكيف تصحح المشاهدة أخطاء جسيمة ويكذّب التشريح أوصافا غير حقيقية دون أن تبنى على تحقق تام بالنظر واللمس ؟

وهو لا يجد حرجا في مخالفة آراء الآخرين، إذا اقتضى الأمر ذلك، فيقول: «وأما منافع كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه»(٢٧).

والتحرر من التبعية غير جديد على بعض العلماء العرب، فلقد ابن النفيس إلى ذلك طبيب عربي آخر هو عبد اللطيف البغدادي الذي قال في كتابه «الإفادة والاعتبار»:

---

(٢٦) المصدر (١٤) ـ ص ١٧.
(٢٧) المصدر (١٤) ـ ص ١٧.

http://kotob.has.it

«والحس أقوى دليلا من السمع، وإن جالينوس، وإن كان في درجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه، فإن الحس منه» [٢٨]

وعلى كل حال فإن الباحثين انقسموا بين الرأي القائل انه استنتاج عقلي بحت وبين أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذا الوصف سوى بالمشاهدة التشريحية ولا يستطيع أن يعطي رأيا قاطعا في موضوع مزاولة ابن النفيس للتشريح لافتقاره إلى الأدلة الواضحة والبراهين المقنعة، ويبقي محللا مستنتجا.

ومع كل ذلك، فهنالك براهين كثيرة تجعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأن ابن النفيس قد زاول التشريح في حدوده الدنيا، أي أنه قد فحص بعض دقائق الأمور وخفاياها في جثة الإنسان وشرّح الحيوانات الصغيرة ليطلع على حركة قلوبها وعلي جريان الدم في عروقها ليستطيع أن يبني ملاحظاته ويتثبت مما سيقوله ومما سينتقد به فطاحل الطب.

من هذه البراهين:

١ـ أقواله في التشريح:

أ ـ «والتشريح يكذب ما قالوه، والحاجز بين البطينين أشد كثافة من غيره».

ب ـ «ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر، كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر، كما ظنه جالينوس».

جـ ـ «فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله ـ أي قول جالينوس ـ إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ، أو أن إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها» [٢٩]

(٢٨) عبد اللطيف البغدادي ـ الإفادة والاعتبار ـ ص ٧٤ ـ طبع مطبعة المجلة الجديدة ومجلة المصري (سلامة موسى).
(٢٩) المصدر (١٤) ـ ص ١٧.

http://kotob.has.it

د ـ «وأنا إلى الآن لم يتحقق لي شيء من ذلك على الوجه الذي أرتضيه. وقولهم إنهم شرحوا وأبصروا الأمر على ما ذكره مما لا يوقع عندي ظنا فضلا عن جزم، فكثيرا ما رأيت الأمر على خلاف ما ادّعوا أنهم صادفوه في التشريح الذي يدّعون أنه تكرر لهم كثيرا» [٣٠].

٢ـ ذكره المبادئ التي يستخرج منها العلم بمنافع الأعضاء بطريق التشريح، وتوصياته بضرورة دراسة (التشريح المقارن Comparative anatomy) الذي يعدّه ضروريا ولازما لفهم تشريح جسم الإنسان.

٣ـ تكرار هذه التوصيات في مخطوط آخر هو (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، أو كتاب فاضل بن ناطق) إذ روي ابن النفيس عن فاضل الذي رغب في التعرف على منافع الأعضاء التي في بطن الحيوانات وصدرها، ما يأتي: «فصار يشق بطون الحيوانات التي يتمكن من إمساكها، والتي يصادفها ميتة، ويفعل ذلك بأظفاره، وبما يجده من الأحجار الحادة الأطراف وبشظايا القصب ونحو ذلك، فشاهد المعدة وأن الغذاء ينطبخ فيها.. وشاهد القلب في الصدر وبطنه الأيمن مملوء من الدم، وبطنه الأيسر مملوء من الروح. وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح في الشرايين إلى الأعضاء، ثم ينبسط فترجع تلك الروح إليه، وحينئذ ينجذب إليه الهواء من الرئة، وهي تجذب الهواء من خارج.. ولم يزل كذلك يستقصي حال عضو عضو حتى وقف على جملة كثيرة من علم الشريح ... [٣١] .

٤ ـ أقواله في فوائد التشريح الذي يعتبره علما وفنا، ينتفع به الطبيب عمليا ونظريا في مزاولته للطب، ويفيد منه في التعرف على مواضع الأعضاء وهيئاتها، وفي الاستدلال على أوضاعها وحالتها في الصحة والمرض.

(٣٠) المصدر (١٤) ـ ص ٢٣٧.

(٣١) ابن النفيس ـ الرسالة الكاملية في السيرة النبوية ـ ص ٦ = ١٣٣، تحقيق شاخت وما يرهوف ـ منشورات جامعة اكسفورد ـ ١٩٦٨.

http://kotob.has.it

كيف انتقلت نظريته إلى أوربا؟

تلك هي نظرية ابن النفيس في دوران الدم في القلب والرئتين والشرايين والأوردة، وتلك هي تصحيحاته لأخطاء من سبقه من أساطين الطب القدامى وانتقاداته لهم.

فكيف وصلت هذه النظرية إلى علماء عصر النهضة الأوربية ؟. ومن نقلها إليهم ؟ ومن اقتبسها؟. ومتى حدث ذلك ؟ وهل وصلت إلى العالم الإنجليزي هارفي الذي يُعزي إليه اكتشاف الدور الدموية بعد أربعة قرون ؟

يطرح عبد الكريم شحادة هذه الأسئلة الصعبة ثم يجيب عليها باقتدار ويوضح كيف تم انتقال نظرية ابن النفيس إلى أوروبا في الندوة التراثية الثانية التي عقدت باشراف العوضي:

خلافا لما يدّعيه كثير من المستعمرين ومن مؤرخي العلم الجاحدين فضل العرب والمسلمين بأن ابن النفيس لم يكن معروفا في أوروبا في عصر النهضة، ولم تصل كتبه إليها، ولم تنتشر أفكاره بين علمائها، فإنه قد عرف جيدا في أوائل القرن السادس عشر، في أعظم جامعة أوروبية آنذاك، وهي جامعة (بادوفا) في إيطاليا.

ولقد عرفه علماء هذه الجامعة وأساتذة الطب والجراحة والفلسفة واللاهوت فيها، بفضل طبيب إيطالي مستعرب هو (آندريا آلباجو)[٣٢] Andrea Alpago (١٤٥٠-١٥٢١م) الذي عاش في دمشق مدة ثلاثين سنة - من ١٤٨٧ إلى ١٥١٧م (٨٩٣ - ٩٢٣ هـ) - تعلم خلالها اللغة العربية، وأتقنها وجمع نفائس المخطوطات الطبية والفلسفية ونقلها إلى (بادوفا) وجارتها البندقية.

(32) Alpago, A, Grand dictionnaire encyclopedique Larouss,1982.

http://kotob.has.it

ومن أشهر علماء هاتين المدينتين الإيطاليتين الذي استفادوا من المعلومات التي حملها إليهم آلباجو والتي تتعلق بالدورة الدموية في القلب والرئتين: فيزاليوس[٣٣] وكولمبو[٣٤] Colombo ومن أشهر علماء وفلاسفة الجامعات الإيطالية والأوروبية الأخرى: سيرفيتوس[٣٥] Servitus ، وسيزالبينو[٣٦] Cesalpion وماسا[٣٧] Massa ، ودي هاموسكو[٣٨] De Hamusco، وغيرهم.

وقد آثار هؤلاء جميعا موضوع الدورة الدموية في القلب والرئتين بعد ظهور ترجمات آلباجو اللاتينية لكتب ابن سينا وابن النفيس والشيرازي وغيرهم :

اندريا آلباجو Andrea Alpago؟ (١٤٥٠ ـ ١٥٣١م):

هو طبيب إيطالي مستعرب، ولد حوالي منتصف القرن الخاسم عشر في مدينة بيللنو Bellono في إيطاليا، ولذا يعرف باسم (آلياجو البيللوني)، كما يعرف باسم (الطبيب الدمشقي) لأنه كان يعمل طبيبا في قنصلية حكومة البندقية بدمشق طيلة إقامته في هذه المدينة التي دامت ثلاثين عاما، كما ذكرنا ذلك آنفا.

ولقد أقام علاقات طيبة وصلات جيدة مع كبار العلماء والمفكرين في دمشق، وأفاد منهم كثيرا، كما اطلع على كتب الطب العربية والفلسفة الإسلامية.

(33) Massa, Nicolas. Ref. (19), p. 124.
(34) Valverdi de Hamusco. Ref. (19), p. 131.
(35) Alpago, A . (Ref.32).
(36) Alpago, paulo. Preface du livere " De Anima' d'Avicenne. Venise en 1527. a elm-prim.
(37) D'Alverny, Mlle. Medievo E Rinascimeto Firenze - Avicenne et les medecins de Venise - pp. 177 - 198.
(38) Anni - Ref. (19) - p. 134.

http://kotob.has.it

ويروي ابن أخيه ووريثه باولو آلباجو Paulo Alpageo الذي تولى نشر كتبه، بعد وفاته، أن عمه آندريا قد تتلمذ على العالم والطبيب الدمشقي شمس الدين محمد بن مكي المتوفي عام ٩٣٨ هـ (١٥٣١م). وأنه قد ترجم إلى اللاتينية كثيراً من الكتب العربية لابن سينا ولمؤلفين عرب ومسلمين آخرين.

ومنها أجزاء من كتاب القانون لابن سينا، وشرح القانون لابن النفيس، وأنه قد نقّح ترجمة جيرار الكريموني للقانون المليئة بالأخطاء، مستعينا بالنسخ العربية الأصلية، ومعتمدا على شرح الشيرازي وشرح ابن النفيس للقانون وعلى كتب أخرى لابن البيطار والبيان والرازي.

وفي ذلك يقول: «كان عمي آندريا آلباجو قد تعلم اللغة العربية، وأتقنها إتقانا تاما. وكان طبيبا مدينة بيللنو.. وترجم كتب ابن سينا.. وكتبا لمؤلفين عرب آخرين.. ومنهم الشيرازي وابن النفيس[٣٩].

كما تقول، الموضوع ذاته، الدكتورة دالفيرني D'Alverny أستاذة الفلسفة في الكوليج دي فرانس: College De France «كان آندريا آلياجو طبيبا مثقفا، وفيلسوفا جذبه الشرق، فذهب إلى دمشق، ومكث فيها ثلاثين عاما. وبلغ به الأمر أنه كان يلقب نفسه بالطبيب الدمشقي Physicus Damascenus، وكان يعمل طبيبا في قنصلية البندقية بدمشق، ويدرس اللغة العربية والأدب العربي والفلسفة الإسلامية بشغف شديد، وكان يصرّح بأنه تتلُمذ على الرئيس الفاضل ابن مكي.. من أوائل الأطباء العرب..Rays Ebenmechi paraceptor meus (Phisicus interomnes Arabes Primarius) وقبل أن يعود آندريا إلى بلاده، تجول - وهو شيخ مسن - مع ابن أخيه الشاب باولو في سورية، وزار مصر، وجمع كثيرا من المخطوطات العربية والشرقية، واستقر - أخيرا - في قبرص،

(39) S. Al-Sammani - Ref. (19) - p. 135.

http://kotob.has.it

والتحق بقنصلية البندقية في نيقوسيا، وبقي فيها ثلاث سنوات، (من عام ١٥١٧ حتى عام ١٥٢٠م).

وكان العثمانيون، في تلك الفترة، قد احتلوا بلاد الشام ومصر، بعد أن هزموا المماليك بقيادة قانصوه الغوري، وقتلوه، ودخلوا حلب عام ١٥١٦م.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد عثر فيما بعد، على تقارير سياسية كان آندريا آلباجو قد رفعها إلى حكومته في البندقية، يتحدث فيها عن الحالة السياسية في بلاد الشرق (سورية، ومصر، وتركيا)، ويوقعها باسم (آندريا البيللوني).

ولما عاد إلى وطنه، كافأه مجلس الشيوخ في البندقية على الخدمات الجلّى (العلمية وغير العلمية) التي قدمها إلى بلاده، فمنحه كرسيا في جامعة بادوفا التي عينته أستاذا للطب فيها، غير أن المنية قد عاجلته، فتوفي ـ فجأة ـ في سنة ١٥٢١م، قبل أن يُتاح له نشر كتبه التي ألفها وترجماته التي أنجزها في دمشق.

ولقد آلت ثروته من الأموال والكتب والمخطوطات والترجمات إلى ابن أخيه ووريثه باولوا آلباجو الذي أخذ على عاتقه مهمة طبع مؤلفات عمه وترجماته ونشرها، فنشر ترجمة عمه اللاتينية لـ (القانون) ثلاث مرات.

الأولى في عام ١٥٢٤م، وألحق بها معجما للمصطلحات الطبية كان عمه قد نقُحه وأنجزه في دمشق، مستعينا بـ (شرح القانون لابن النفيس)، وبـ (شرح القانون للشيرازي).

الثانية في عام ١٥٤٤م وألحق بها (الأرجوزة في الطب لابن سينا) و(الأدوية القلبية لابن سينا).

http://kotob.has.it

الثالثة في عام ١٥٤٧م، وألحق بها دراسة لعمه عن النبض مقتبسة من (رسالة في النبض لابن النفيس). وهذه الرسالة مفقودة في أصلها العربي.

ونشر في عام ١٥٤٦ ترجمة عمه لـ (مقالة في النفس لابن سينا).

ولم تتح له الظروف فنشر ما بقي في حوزته من مؤلفات عمه وترجماته وتعليقاته.

ولقد عثر في أواخر القرن الثامن عشر على مؤلفات آندريا آلباجو وكتبه ومخطوطاته العربية واللاتينية والإيطالية في مكتبة (المارشيانا Marciana) في البندقية. وهي مهداة من الكونت جياكوبو نانّي [٤٠] Jiacobo Nanni (١٧٣٥ ـ ١٧٩٧م) الذي كان قد ترأس على جامعة بادوفا عام ١٧٨٧، والذي جمع وأقتنى نفائس المخطوطات العربية والشرقية واليونانية والإيطالية وأوصى بأن تهدى مكتبته، بعد وفاته، إلى مكتبة المارشيانا.

ولقد عهد إلى الراهب الماروني اللبناني الأصل سمعان السمعاني [٤١] Simon Al - Sammani (١٧٥٢ ـ ١٨٢١م) المتوفي في بادوفا، والذي كان يدرس اللغات الشرقية في جامعتها، بأن يفهرس المخطوطات العربية التي تحتوي عليها مكتبة نانّي، فأنجز فهرستها الفهرس في جزأين عام ١٧٨٧ .

ومن بين المخطوطات العربية التي وجدت في مكتب نانّي نسخة مخطوطة ابن النفيس (شرح تشريح القانون). وهي تحمل على الأولى هذه التمليكة (من كتب الفقير إلى الملك الأحد جلال الدين شمس الدين محمد غفر الله ذنوبهما)، وتحتها خاتم غير مقروء، حمل على ورقتها الأخيرة اسم الناسخ وتاريخ النسخ: «وكتب أضعف عباد الله عبد الغني بن عبد الرازق الغوطي

(٤٠) الرسالة الكاملية، تحقيق ماكس مايرهوف، ويوسف شخت، أكسفورد ١٩٦٨، ص ٤٨.
(٤١) الرسالة الكاملية، تحقيق ماكس مايرهوف، ويوسف شخت، أكسفورد ١٩٦٨، ص ٤٨.

http://kotob.has.it

المتطبب في أواخر ذي الحجة٧٣٤ حامدا لله تعالى) وخاتم المالك، وهو غير واضح تماما، أن تُقرأ منه كلمة جلال الدين.

ويرى الباحثون أن هذه النسخة التي كُتبت عام ٧٣٤هـ (١٣٣٧م)، أي بعد وفاة ابن النفيس بما يقارب الـ ٤٧ سنة، هي نسخة كان يملكها شمس الدين محمد بن مكي أستاذ الباجو حين كان في دمشق.

نستنتج مما تقدم:

أن ابن النفيس قد عُرف في أوروبا، وفي بادوفا أولا، منذ مطلع القرن السادس عشر، إثر نشر باولو آلباجو كتب عمه آندريا.

ونجم عن ذلك اطلاع علماء بادوفا وأساتذة جامعتها على نظرية ابن النفيس في دوران الدم في القلب والرئتين، فتهافتوا عليها، وراحوا يتسابقون إلى الكتابة في موضوعها، دون أن يشيروا أو يلمحوا إلى مصدر العربي المسلم الذي استقوا منه معلوماتهم ,

ومن هؤلاء سرفتيوس وفيزاليوس.

ميخائيل سرفيتوس Michael Servitus (١٥١١ ـ ١٥٥٣م):

يعد ميخائيل سرفيتوس من أوائل العلماء الذي تأثروا بنظرية ابن النفيس في دوران من القلب والرئتين ورددوها في كتاباتهم. فلقد ألف كتابا في اللاهوت سماه (إصلاح المسيحية Christianismi Restitutio)، بعد بضع سنوات من ظهور ترجمات آلباجو لكتب ابن سينا ولشروح ابن النفيس، يتضمن معلومات عن تولد الروح في القلب متطابقة كل التطابق مع معلومات ابن النفيس التي انتشرت في بادوفا، آنذاك، حتى كأنها هي. فقال المستشرق مايرهوف: «إن ما آثار دهشتي أثناء قراءتي للمقاطع التي تخص الدوران الرئوي في مخطوطة

http://kotob.has.it

ابن النفيس، هو الشبه العظيم بينها وبين الجمل التي كتبها سرفيتوس في كتاب (إصلاح المسيحية)، حتي ليخيل للمرء أن المقاطع التي في الكتاب العربي قد ترجمت إلى اللاتينية بشيء من التصرف».

ومما تجدر الإشارة إليه أن سرفيتوس إسباني الأصل، ولد في مدينة فيلانوفا في إسبانيا عام ١٥١١م، ودرس اللاهوت في سرقسطة، وانتقل منها إلى طولوز في فرنسا، ودرس التوراة فيها. ثم ارتحل إلى مدينة بال في سويسرة، لكنه طرد منها إثر مناقشات ومجادلات دينية مع اللاهوتين السويسريين، فالتجأ إلى مدينة ليون في فرنسا، وفي هذه المدينة أبدى اهتماما خاصا بالطب. ثم انتقل منها إلى باريس ودرس التشريح في جامعتها، والتقى بفيزاليوس وزامله وصادقه، وفي عام ١٥٣٠م ارتحل إلى بادوفا، في إيطاليا، وبقي فيها فترة طويلة من الزمن. وهكذا كان سرفيتوس كثير التنقل والارتحال، جاب معظم البلدان والعواصم الأوربية: (باريس، ليون، جنيف، فيينا، بادوفا)، واجتمع بكبار العلماء والمفكرين، وأثار نقاشات حادة مع رجال الدين حول مواضيع دينية خطيرة، فاتهموه بالهرطقة. ولما ظهر كتابه (إصلاح المسيحية) الذي كان قد طبعه، عام١٥٥١م، في فيينا، سرا، تألب عليه رجال الدين، فهرب واختفى، وتبعوه، ولاحقوه حتى قبضوا عليه في جنيف، وحكموا عليه بالموت، مع كتابه الذي لم ينج منه إلا بضع نسخ، تمتلك مكتبة كلية الطب في باريس واحدة منها.

ويُعرف عن سرفيتوس أنه كان يتقن عدة لغات إلى جانب الإسبانية لغته الإصلية، ومنها: العربية والعبرية والفرنسية واللاتينية واليونانية. ويعرف الكثير عن المؤلفين العرب وعن مؤلفاتهم. ولقد اعترف أمام اللجنة التي حاكمته في جنيف أنه قرأ القرآن حين كان في بال. ولما كان سرفيتوس أول

http://kotob.has.it

أوربي مسيحي يخالف تعاليم جالينوس في توليد الروح في القلب الأيسر، وفي مرور الدم من القلب الأيمن إلى القلب الأيسر، وينكر وجود المنافذ (الوهمية) في الحاجز بين البطينين (وهو - في الحقيقة - يردد نظرية ابن النفيس المسلم)، فإن بعض المستشرقين ومؤرخي الطب - وفي طليعتهم الإسبانيون - يعتبرونه الرائد الأول في اكتشاف الدورة الدموية الرئوية، ويتجاهلون أو ينكرون أسبقية ابن النفيس في ذلك الاكتشاف.

آندريا فيزاليوس Vesalius Anderea (١٥١٤ - ١٥٦٤م):

يرى مؤرخو العلم أن آندريا فيزاليوس، الذي شغل كرسي أستاذ التشريح في جامعة بادوفا عام ١٥٣٩م، هو أول من صحح أخطاء جالينوس في تشريح القلب، وأول من أنكر وجود مسام في الحاجز بين البطينين، ويتناسون العالم العربي ابن النفيس الذي كان قد أتى بهذه الفكرة، للمرة الأولى قبل ثلاثمائة سنة، ثم أخذها عنه علماء عصر النهضة في أوروبا، ومنهم فيزاليوس نفسه. ولد فيزاليوس في مدينة لوفان، في بلجيكا، ثم انتقل إلى باريس في عام ١٥٣٣م لدراسة الطب في جامعتها. تتلمذ في دراسته للتشريح على المشرّح الإفرنسي الشهير جاكوبوس سيلفيوس J. Selvius (١٤٧٨ - ١٥٥٥م)، والتقى، آنذاك بالإسباني سرفيتوس[٤٢] الذي زامله وصادقه. وعلى ما يبدو من كتابات فيزاليوس أنه كان معجبا بالطب العربي وأساطينه، وبخاصة الرازي، وأنه كان يعرف العربية ويتقنها.

ونشر في عام ١٥٤٧م - وهو لا يزال طالبا في كلية الطب في باريس - كتابا أسماه (صياغة جديدة للمقالة التاسعة للرازي)، قال في مقدمته: «اخترت الرازي لأقارن بين مؤلفاته ومؤلفات اليونايين وكنت أسمع أستاذي العالم

(٤٢) كما ألف رسالة الأعضاء إلى أحد الأمراء.

http://kotob.has.it

الكبير (سيلفيوس) يقول عن الرازي إنه الأول في فن المعالجة من بين جميع الأطباء من بني جنسه...»، ويقول، أيضا: «لم أحاول أن أترجم الكتب المترجمة ترجمة حرفية ... وفضّلت أن أعلق عليه، وأضيف ما أراه ضروريا». وعندما نشر لوحاته التشريحية المشهورة، عام ١٥٣٨م استعان في شروحه عليها بالمصطلحات الطبية العربية والعبرية واللاتينية واليونانية. وفعل الشيء ذاته في كتابه المعروف باسم (في بنية الجسم البشري De humani corporis tabicos) الذي أصدره، للمرة الأولى، في عام ١٥٣٤م. وفي عام ١٥٣٩م اضطر فيزاليوس للتوقف عن دراسته الطبية في باريس بسبب الحرب، وانتقل إلى جامعة بادوفا في إيطاليا، حيث أنهى دراسته فيها وتخرج منها. وتعين فور تخرجه أستاذا للجراحة والتشريح فيها. واكتسب بسرعة فائقة شهرة عظيمة في التشريح في بادوقا، وذاتع صيته في الجامعات الإيطالية والأوربية، حتى لقب بـ (مؤسس التشريح الحديث).انتقد فيزاليوس جالينوس في بعض المسائل التشريحية وخطأه، فأثار عليه حفيظة أستاذه (سيلفيوس) الذي كان من أشد المتعصبين لجالينوس حتى إنه كان يقول، حين يكتشف أثناء تشريح جثة الإنسان شيئا مغايرا لما وصفه به جالينوس في كتابه: إن جسم الإنسان هو الذي تغير، بمرور السنين، منذ أيام جالينوس حتى أيامنا هذه».

وعلى أثر صدور كتاب فيزاليوس (في بنية الجسم البشري) هاجمه استاذه (سيلفيوس)، وشنّع عليه وقذفه بعبارات قاسية، وشتائم لاذعة، ونعته بالمنشق والمجنون والحمار، وقال عنه: «إنه يسمم عقول الناس بأفكاره السخيفة حين يتطاول على جالينوس، وينتقده ويخالفه في آرائه. وعندما أعاد فيزاليوس طباعة كتابه (في بنية الجسم البشري) ثانية في عام ١٥٥٥م - أي بعد ثماني سنوات من صدور الطبعة الثالثة لترجمة آلباجو للقانون ورسالة

http://kotob.has.it

ابن النفيس الملحقة به ـ أضاف إليه الفكرة التي سيطرت على عقول جميع المشرحين والأطباء ـ آنذاك ـ وهي سماكة الحاجز بين البطينين وخلوه من أي مسام، وهذه هي فكرة ابن النفيس ذاتها. ويُلاحظ أن هذه الفكرة لم ترد في طبعة كتابه الأولى عام ١٥٤٣م. ومن التناقضات الغريبة أن سيلفيوس المتعصب لجالينوس والذي عاب على فيزاليوس انتقاده له، أصدر في العام نفسه (أي في سنة ١٥٥٥م) كتابا اسمه (إيساغوجي) نفي فيه وجود ثقوب في الحاجز بين البطينين، أي تبنى رأي ابن النفيس وسيرفيتوس في انتقاد جالينوس. وحذا حذوهم كثير من الأطباء والمشرحين وأساتذة الجامعات الذين راحوا يتسابقون في إصدار الكتب التي تردد نظرية ابن النفيس وتعاليمه.

١ـ نيقولا ماسا Nicolai Massa (١٤٨٥ ـ ١٥٦٩):

ولد في البندقية عام ١٤٨٥م، ودرس الطب في بادوفا. وفي عام ١٥٢١م سُمى عضوا في الهيئة التدريسية لكلية الطب في البندقية. وكان ماسّا يحترم الأطباء والفلاسفة العرب، وبخاصة ابن رشد الذي يقول عنه: «لقد كسفت شهرته النجوم». وفي عام ١٥٣٧م نشر كتابا في التشريح أسماه (المدخل إلى التشريح)، وهو مختصر عملي تداوله الأطباء والمشرحون زمنا طويلا. وفيه يقول: «إن الجدار بين بطيني القلب سميك ومصمت وليس فيه ثقوب».

٢ـ ريالدو كولمبو Realdo Colombo (١٥٢٠ـ ١٥٥٩م):

ولد في كريمونا في إيطاليا عام ١٥٢٠م، وقيل عام ١٥١٦م ,درس الطب في بادوفا، واهتم بالتشريح، وتتلمذ على فيزاليوس وأصبح ـ فيما بعد ـ مساعدا له. وفي عام ١٥٤٢م شغل منصب أستاذ التشريح في بادوفا، وحل محل أستاذه فيزاليوس حين كان غائبا، فاستاء منه فيزاليوس كثيرا، ونعته

http://kotob.has.it

بقلة الوفاء ونكران الجميل، وقاله عنه إنه جاهل وقليل المعرفة بالتشريح، بينما كال له كولمبو المديح، وأبدى الود والاحترام في مقدمة الكتاب الذي أصدره عام ١٥٥٩م واسماه في التشريح (De reanatomica) وفي عام ١٥٥٦م انتقل كولمبو إلى بيزا في إيطاليا ودرّس التشريح في جامعتها. ثم انتقل إلى روما في عام ١٥٥٨م، وتوفي فيها بعد سنة واحدة، وهي السنة التي أصدر فيها كتابه (في التشريح).

ومما جاء في هذا الكتاب:

«يوجد بين بطيني القلب حاجز زعموا أن دم البطين الأيمن يمر عبره إلى البطين الأيسر، وهذا خطأ فاحش لأن الدم يحمله الشريان الرئوي إلى الرئتين، ومن الرئتين ينتقل هذا الدم مع الهواء إلى البطين الأيسر بواسطة الوريد الرئوي». وفي الحقيقة فإن هذه العبارات هي ذات العبارات التي وردت في كتاب ابن النفيس (شرح تشريح القانون) وهي الكتب التي نقلتها عنه. ولم يكتف كولومبو بإغفال ذكر المصدر الذي استقى منه معلوماته، بل ـ على العكس ـ صرّح بأن أحدا لم يسبقه إلى ذلك، فكأنما كان يخشى أن توجه إليه تهمة السرقة والنقل عن ابن النفيس أو آلباجو أو سرفيتوس أو فيزاليوس، ولكن هؤلاء، أيضا لم يذكروا المصدر الذي استقوا منهم معلوماتهم، ولم يشيروا إلى المؤلف الذي استرشدوا بآرائه.

٣ ـ فالفردي هاموسكو Valverde De Hamusco[٤٣] **(١٥٠٨ـ ١٥٦٥م):**

طبيب إسباني ولد في هاموسكو، في إسبانيا عام ١٥٠٨، وقيل عام ١٥٢٥م. درس الطب في باريس وبروكسل وبادوفا. ورافق جميع المشرحين الكبار في الدراسة والعمل. وعندما تعين كولومبو أستاذا للجراحة والتشريح

(٤٣) ١٩٦٨، ص ٤٨.

http://kotob.has.it

تعين هاموسكو مساعدا له. وفي سنة ١٥٥٤م أصدر كتابا في التشريح أسماه (تاريخ تركيب جسم الإنسان)، نشره أولا بالإسبانية، ثم ترجمه إلى عدة لغات، ونشره في عام ١٥٥٦م بالإيطالية والألمانية واللاتينية. فاستاء منه رئيسه كولومبو، ونقم عليه، وهاجمه هجوما عنيفا، واتهمه بالجهل والسرقة. ولقد تطرق فاليردي في كتابه إلى ذكر الدورة الدموية الصغرى، كما جاءت عند الطبيب العربي ابن النفيس وعند أساتذته وزملائه.

٤ـ آندريا سيزالبينو Andrea Cesalpino (١٥١٩ ـ ١٦٠٣م):

طبيب وفيلسوف إيطالي. ولد في آريزو Arezzo، في إيطاليا. درس الطب في جامعة بيرزا. تتلمذ على كولومبو، وأبدى اهتماما كبيرا بالتشريح. تخرج من جامعة بيزا سنة ١٥٥١، ودرّس فيها.

وتعين بعد ذلك أستاذا لعلم النبات في الجامعة نفسها، ومديرا لحديقة النبات في مدينة بيزا. وكان مولعا بالفلسفة واللاهوت، إلى جانب الطب والتشريح وعلم النبات. وفي سنة ١٥٩٢م اختاره البابا كليمنت الثامن ليكون طبيبه الخاص، وعينه أستاذا في جامعة روما. ألف عددا من الكتب في الطب والفلسفة واللاهوت وعلم النبات، ما بين ١٥٧١ و ١٥٧٣م ضمّنها نبذا وأفكارا عن الدوران الرئوي ، وتكلم على سير الدم في الأوردة والقلب، واتجاهه من الأوردة إلى القلب الأيمن، فالرئة، فالقلب الأيسر، فالأبهر. وردد في هذه الفقرات نظرية ابن النفيس كما وردت في كتابه (شرح تشريح القانون) قبل ما يزيد على ثلاثمائة سنة. لكن سيزالبينو أضاف إليها أفكار جديدة لم يعرفها أحد من قبله، ومنها: «أن صمامات القلب لا تسمح بمرور الدم إلا باتجاه واحد، وان الشرايين تمتلئ عند انقباض القلب، وأن الأوردة إذا ربطت فإنها تنتفخ تحت الرباط». وهذا يفسر اتجاه الدم في سيره في الأوردة.

http://kotob.has.it

وسيزالبينو هو أول من استعمل كلمة (الدوران Circulation).

٥ ـ فابريس الاكواباندانتي Fabrici d'Aquapendent (١٥٣٣ ـ ١٦١٩م):

طبيب إيطالي. ولد سنة ١٥٣٣م في أكواباندانت، في إيطاليا. درس الطب في جامعة بادوفا، وتخرج منها سنة ١٥٥٩م. وفي عام ١٥٦٥م سُمى أستاذا للجراحة والتشريح في ذات الجامعة. شارك بأبحاث قيمة في موضوع الدورة الدموية واهتم بالتشريح المقارن، وبإجراء التجارب على الحيوانات، ويُعزى إليه اكتشاف صمامات الأوردة. وهو أستاذ وليم هارفي في جامعة بادوفا، وصديقه ومدربه. وله أبلغ الأثر في مسيرته الطبية ونجاحه في إكتشاف الدورة الدموية. توفي في بادوفا سنة ١٦١٩م، وخلف ثروة طائلة.

٦ـ وليم هارفي Harvey William (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧م):

طبيب إنجليزي. ولد في فولكيستون Folkestone، في إنجلترا، عام ١٥٧٨م. درس الطب في كمبريدج. ثم انتقل إلى بادوفا التي كانت جامعتها تتمتع بشهرة كبيرة ليستزيد من العلم والمعرفة في الطب والتشريح. تتلمذ على الأستاذ فابريس الأكواباندانتي، وأفاد منه كثيرا في تشريح جثة الإنسان، والتشريح المقارن، والتجارب على الحيوان. وقطف ثمرة جهود جميع الذين بحثوا في موضوع الدورة الدموية، بدءا من العالم العربي ابن النفيس، انتهاء بأستاذه الإيطالي فابريس. تخرج هارفي من جامعة بادوفا في عام ١٦٠٢، وعاد إلى إنجلترا في عام ١٦٠٧م. وفي عام ١٦٢٨م اصدر كتابه الشهير (دراسة تشريحية لحركة القلب والدم في الحيوان) الذي يصف فيه الدورة الدموية في جسم الإنسان، والذي نال به شهرة عظيمة طبقت الآفاق. توفي هارفي في هامبستيد Hampstead في إنجلترا، عام ١٦٥٧ .

http://kotob.has.it

ويتساءل عبد الكريم شحاده:

ماذا نستخلص من سرد سير أولئك العلماء والأطباء وأساتذة الجامعات الذين بحثوا في موضوع الدورة الدموية الرئوية؟

وماذا نستنتج من تهافتهم على إصدار الكتب وتركيزهم عليه؟

وبماذا نفسر إنكار كل واحد على صحبه أسبقيته في ذلك، وإدعاءه بأنه هو الذي أتى بهذه الأفكار، لأول مرة دون أن يقتبسها من أحد؟

هذا مع العلم أنهم جميعا قد نشأوا في وسط واحد، وتعارفوا فيما بينهم، وعمل بعضهم مع بعض.

ففيزاليوس عاصر سيرفيتوس وأصبح - فيما بعد - أستاذا للجراحة والتشريح في جامعة بادوفا حيث كان كولومبو مساعدا له في التشريح ويعمل تحت إمرته وإشرافه، وسيزاليبينو يخلف كولومبو، ويأتي بعدهم فابريس الأكواباندانتي، وأخيرا وليم هارفي.

وهؤلاء جميعا يشكلون فيما بينهم وحدة متكاملة في العمل والثقافة والتفكير، يتبادلون الآراء، ويتناقلون الأخبار، ويرددون الآراء الثورية الجديدة في الطب التي تقلب المفاهيم السائدة، ومفاهيم جالينوس وابن سينا.

كل ذلك يحدث، فجأة، بعد ترجمة ألباجو اللاتينية الشهيرة لكتاب ابن سينا وشرح ابن النفيس عليه (شرح تشريح القانون)، وانتشار أخباره في بادوفا والبندقية والعواصم والمدن الأوروبية.

من المؤسف أن أولئك العلماء لم يشيروا إلى اكتشاف العالم العربي المسلم ابن النفيس، إما طمعا بسبق، وإما إهمالا للأمانة العلمية التي لم تكن مرعية في تلك الأيام، وإما «خوفا من الرأي العام المسيحي الذي لا يتقبل نظرية صادرة عن عالم مسلم» - كما يقول الدكتور بول غليونجي -.

http://kotob.has.it

والحقيقة التي لا مرية فيها أن الطبيب العربي، الدمشقي مولدا والمصري موطنا، علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي المشهور بابن النفيس (٦٠٧ ـ ٦٨٧هـ / ١٢١٠ ـ ١٢٨٨م) قد عُرف في اوروبا، في عصر النهضة، معرفة تامة بفضل الطبيب الإيطالي المستعرب باولو آلباجو الذي نقل من دمشق نظرية ابن النفيس في دوران الدم في القلب والرئتين إلى أكبر مركز علمي في أوروبا آنذاك، (وهو جامعة بادوفا) مما كان بوابة الثورة العلمية التي لم ينطفئ أوارها حتى يومنا هذا.

*****

http://kotob.has.it

زقاق القرشي في حي الميدان جنوب مدينة دمشق ويظهر المدخل

ممرات زقاق القرشي الضيقة والأقواس الحجرية دمشق سوريه

http://kotob.has.it

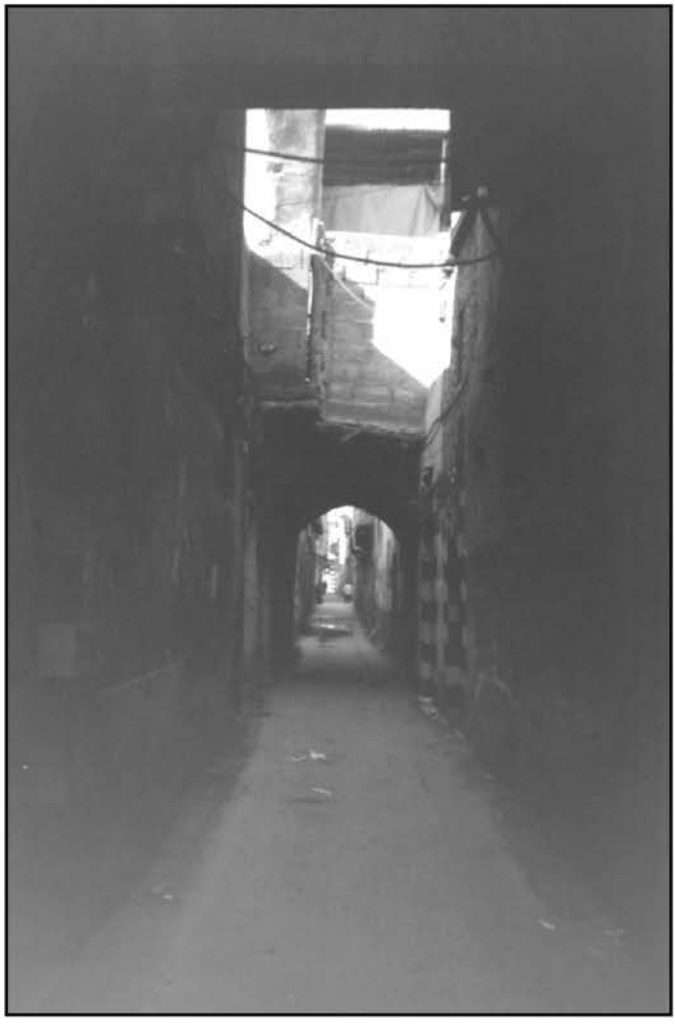

الممرات الضية التي يتميز به أحياء دمشق القديمة
والتي بنيت على مر الأيام صورة - زقاق - القرشي من الداخل

http://kotob.has.it

مدخل البيمارستان القوري
والذي أصبح متحف الطب والعلوم عند العرب - الحريقة - دمشق - سورية

http://kotob.has.it

الإيوان في البيمارستان النوري بدمشق

http://kotob.has.it

البيمارستان النوري من الداخل وترى آيات القرآن الكريم سورة الفتح، وطواويس زينة

ابن النفيس

http://kotob.has.it

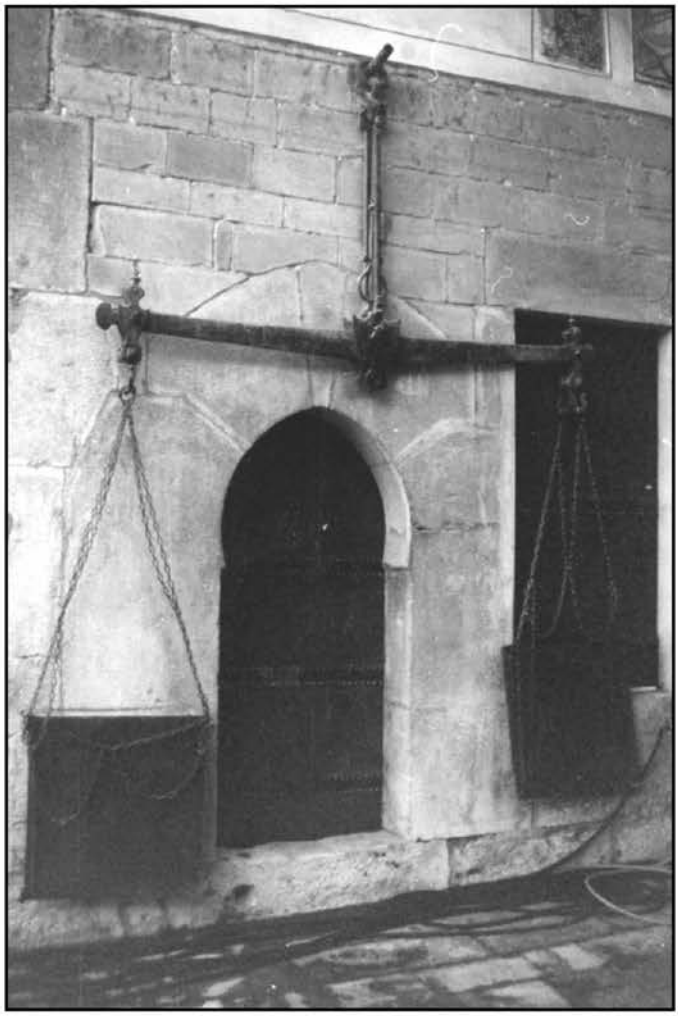

الميزان الكبير في البيمارستان النوري بدمشق

http://kotob.has.it

صورة عن الورقة الأولى لمخطوطة شرح معاني القانون لابن النفيس. نسخة الاسكوريال رقم ٨٢٨ (ناقصة من آخرها، ولم يذكر فيها اسم الناسخ)

المصدر: يوسف زيدان. مؤلفات ابن النفيس المخطوطة استكشاف وتحليل؛ ملحق ٣ نماذج من نوادر مخطوطات ابن النفيس. في عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ . ص ١٦٩ .

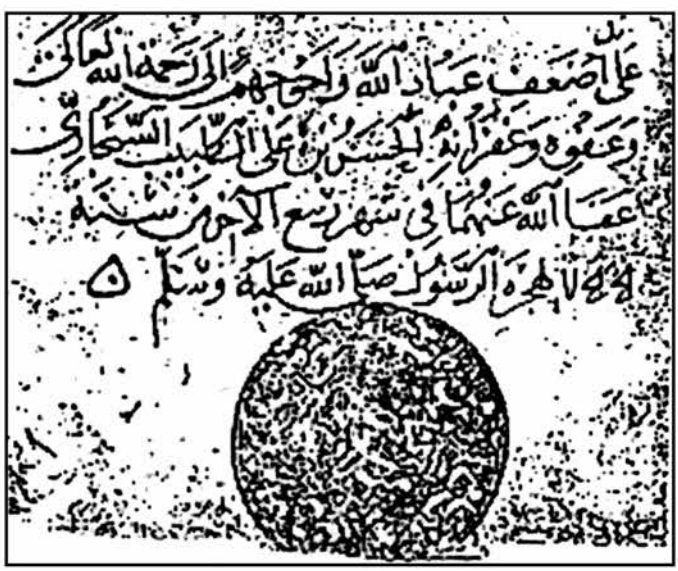

صورة عن الورقة الأخيرة من مخطوطة شرح فصول أبقراط لابن النفيس. نسخة دار الكتب المرية رقم ٣٦٦ / طب تيمور (لاحظ نوع الخط واسم الناسخ).

المصدر: يوسف زيدان. مؤلفات ابن النفيس المخطوطة استكشاف وتحليل؛ ملحق ٣ نماذج من نوادر مخطوطات ابن النفيس. في عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ . ص ١٦٨ .

http://kotob.has.it

كثيرة ومفردات عدة لم يذكرها في كتابه الجامع صنّابها ونخلا على غيره
بمعرفتها قال لي الحكيم صلاح الدين ابن البرهان كان ابن
البيطار يعرف ما يدخل في علم الكيمياء اشياء لم يذكرها في جامعه قلت
وابن البرهان كان مغرى بالكيمياء مصدقا بعلمها وان كان لا يعملها بيده ولهذا
اخذه قال ما قال

فمثل يدعون وصال ليلى وليلى لا تقر لهم بذا

ومنهم علي ابن سليمان الحرمي هو الامام الفاضل الحكيم العلامة
علاء الدين ابن النفيس القرشي الدمشقي فرد الدهر وواحده واحد الاول علم والثاني
امام الفضايل وتمام الاوايل والجبل الذي لا يرقا علاه بالسلالم والجبل الذي
لا يعلق به الا الغربيّ المتالم لم يبق الامر لغرف منه عرفة بيده واخذ منه
جلية لمقلده جل مصر في مجلى ملكها وسخت ليالها باشراقه صبغة حلكها
وقرأ عليه بها الاعيان وحلا فضله واعيان ولم يكن يجلّ علم واحد بمقتصر
ولا شبهه بالبحر الا مختصر هذا الى حسب غير مرءوس وحسب مثل جناح
الطاووس وشرف فرشي لا تحل معه في بطاحه ولا تخشى البيد قلاص
بطاحه فكانه وزهي بيتالم بضرب غير متوسط السماء وبدا وكمل ذاته
بكرم وخير ومجد في اول واخير ومزايا استحقاق وسجايا كمواشي النسيم
الرقاق ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق قال ابن
ابي اصيبعة نشأ بدمشق واشتغل بها في الطب على المهذب الدخوار وكان
الدخوار منجبا تخرج عليه جماعة منهم الرضي وابن هاضي بطليك والشمس الحلي
وكان علاء الدين اماما في علم الطب لا نظير له في ذلك ولا بدا في اي سيضمار
واستنباطا واشتغل على كبر وله فيه التصانيف الفايقه والتواليف الرائقه

يترجم لابن النفيس ذاكرا اسم علي ابن أبي الحرم. لاحظ أيضاً شكل الراء في الحرم الواردة ضمن اسم ابن النفيس التشكيل بالفتحة..

(المصدر رمضان شلش: تعليم الطب في عهد الأيوبيين والوسط العلمي الذي نشأ فيه ابن النفيس في: عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ . ص ٣٥٣ .

http://kotob.has.it

صورة من مخطوطة يترجم لابن النفيس ذاكراً كتبه واختلاف مواضيعها من الطب والمنطق وأصول الفقة واللغة العربية والحديث وعلم البيان.

(المصدر رمضان شلش: تعليم الطب في عهد الأيوبيين والوسط العلمي الذي نشأ فيه ابن النفيس في: عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ . ص ٣٥٣ .

http://kotob.has.it

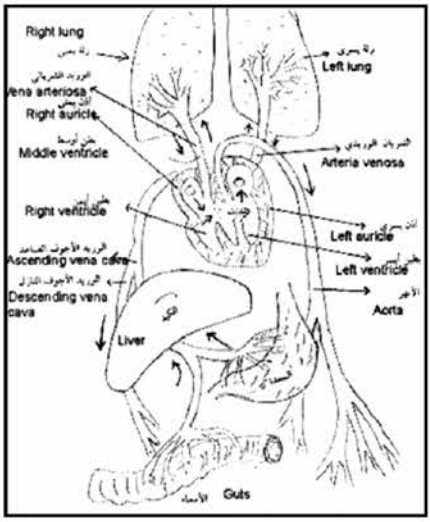

مخطط يظهر دوران الدم حسب جالينوس بتصرف عن ابن النفيس الفيزيلوجية الحديثة.

الحجاج: في محاضر مؤتمر الصوفي وابن النفيس ص ١٣١ عمان الأردن ١٩٨٧ .

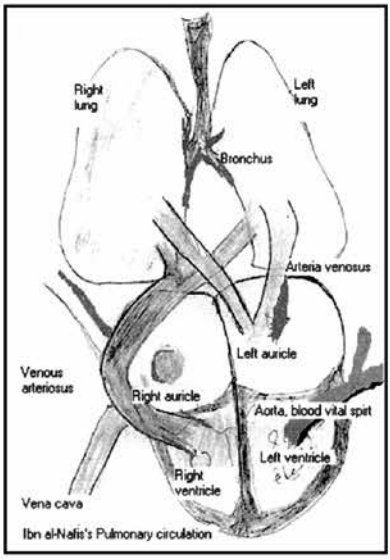

مخطط يظهر دوران الدم حسب جالينوس تعاليم ابن النفيس بتصرف عن المصدر السابق

http://kotob.has.it

الفصل الخامس

فلسفة ابن النفيس من خلال الرسالة الكاملية وبعض مؤلفاته الطبية

يؤكد عمّار الطالبي(*) في بحث عميق عن أهمية ابن النفيس الفلسفية ويذكر: «أهتم دارسوا ابن النفيس بأعماله الطبية، واكتشافه لدورة الدموية الصغرى، ولم يعنوا بما فيه الكفاية بفلسفته وجوانبه الأخرى». ويقرر أنه يجب أن نحدد معالم فلسفته، وملامح فكره العلمي المنهجي. ونورده هنا بتصرف نظراً لأهمية هذه الدراسة.

تمثل رسالته الكاملية محور فلسفته، التي سماها: «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، ورسالة فاضل بن ناطق»(١).

أجمعت المصادر القديمة والمراجع الحديثة أن هذه الرسالة من مصنفاته، ولم يشك أي دارس في نسبتها إليه، ولكن لماذا سماها بالكاملية؟ فهل يقصد من الكاملية ومن «كامل» المتأمل المفكر المبدع لهذه القصة المعنى الذي يقصد إليه المتصوفة، أم أنه يقصد به الكمال النبوي الذي شرح سيرته وأبان خلقه وخُلقُه وكما شريعته؟ بيد وصفه لبطل قصته: «كامل» بأنه «دائم التصفح والتفكر في أحوال الموجودات» (٢) وأنه اهتدي إلى الحقائق العلمية في العلوم الطبيعية، والحقائق الميتافزيقية بعقله واستدلاله المنطقي يقوم شاهدا على أنه ليس نبيا، وإنما هو شخصية أوتيت كمالا عقليا، وقدرة فائقة على التأمل

(*) عمّار الطالبي: اعمال الدورة الثانية عن ابن النفيس الكويت ١٩٩٩م العوضي الجندي وآخرون.

(١) وقد وهم بعض الدارسين فجعل هذين العنوانين كتابين مختلفين مثل بروكلمان، وبول غليونجي في كتابه عن «ابن النفيس في سلسلة أعلام العرب». الكويت «دون تاريخ» ص ١٠٨ .

(٢) الرسالة الكاملية، تحقيق ماكس مايرهوف، ويوسف شخت، أكسفورد ١٩٦٨، ص ٤٨.

http://kotob.has.it

والنفاذ إلى الحقائق بانفراده وباستقلاله عن كل مجتمع، وعن كل تعليم أو تلقين، وعن كل وحي سماوي. يبقي احتمال آخر، وهو أنه سمى هذه الرسالة بالكاملية، نسبة إلى السلطان الكامل محمد الأيوبي (ت ٦٣٥هـ) الذي دعاه إلى مصر[٣]. فرحل إليها سنة (٦٣٣هـ)، وهذه عادة جرى بعض المؤلفين عليها[٤] قديما. وأغلب الظن أنه سماها كذلك نسبة إلى اسم بطلها الذي كمل في عقله وفي تحققه بالوصول إلى المعاني العقلية العليا الكاملة، وهو المعنى الذي أكده ابن طفيل في قصته الفلسفية «حي بن يقظان»[٥] بالنسبة لبطله «حي بن يقظان».

أما «فاضل بن ناطق» فهو مجرد راوٍ او قاصٍ لما وصل إليه «كامل» من تأملات فلسفية وشرعية و تاريخيه. ولم يذكره إلا في المقدمة، وفي موضع آخر من هذه الرسالة [٦]، ووصف هذه الشخصية باعتبارها راوية، بالعدالة والثقة «الفضل» وما إلى ذلك من الصفات الأخلاقية التي يشترطها المؤرخون والمحدِّثون في الراوية، وكذلك وصفه بالضبط والدقة في راويه «ناطق» وهذا شرط جوهري أيضا عند المحدثين، وهو منهم [٧]، والنطق هنا هو القوة العقلية، أو العقلية المنطقية.

مكانة الرسالة الكاملية بين القصص الفلسفية:

كان أول من أشار إلى علاقتها بقصة ابن سينا الرمزية نجم الدين الصفدي[٨] (ت٧٦٤ هـ) وتبعه في ذلك المؤرخون الذين نقلوا عنه من بعده،

(٣) كما ألف رسالة الأعضاء إلى أحد الأمراء.

(٤) مثل أبي حامد الغزالي الذي سمى كتابه «فضائح الباطنية» «بالمستظهري» نسبة إلى الخليفة «المستظهر بالله».

(٥) مايرهوف، وشخت، المصدر السابق «المقدمة» ص ٣٣.

(٦) «قال فاضل بن ناطق» ص ٣٦.

(٧) ألف رسالة في مصطلح الحديث أو أصوله سماها المختصر في أصول الحديث مخطوطة دارالكتب المصرية رقم ٢٠٩، ولدى صورة منها.

(٨) الوافي بالوفيات، مخطوط المتحف البريطاني رقم ٦٥٨٧ Or، من ورقة ٢٠ إلى ٢١.

http://kotob.has.it

ويبـدو أنه وهـم في هـذه المسألة، لأن ابن النفيس لم يشر فيها لابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) مطلقا، وهو لا يتردد في نقده في كتبه الطبية، فكيف لا يذكر خطأه في رسالته حي بن يقظان، في مقدمته على الأقل كما فعل ابن طفيل (ت ٥٨١هـ) في مقدمة قصته التي نقد فيها الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وغيرهما، كابن باجة الأندلسي (ت ٥٣٣ هـ) وأشار ابن طفيل إلى ابن سينا وإلى منهجه في الحكمة المشرقية، ونسب إليه كتابا في «الفلسفة المشرقية»[٩] وسمى قصته بالعنوان نفسه الذي أطلقه ابن سينا على عمله، وذكر ابن طفيل أيضا، قصة «أبسال وسلامان» لابن سينا أيضا، واستعمل هذين البطلين في قصته، وهي قصة ترجع إلى العهد اليوناني المتأخر.

أما ابن النفيس فقد جاء بعنوان جديد، ولم يشر إلى من تقدمه من الفلاسفة الذين كتبوا في هذا اللون من القصص الفلسفي، مع أنه لا شك عندنا أنه على اطلاع بعمل ابن سينا الذي اعتمد على كتبه في الطب واختارها على غيرها، وسمى «بابن سينا الثاني» وأما علاقة قصته بقصة ابن طفيل فواضحة جدا لا تحتاج إلى برهان، لذلك نجد ماكس مايرهوف[١٠] يرى أنها لم تكن معارضة لابن سينا كما زعم نجم الدين الصفدي، وربما نشأ ذلك من خطأ نسبة بعض المؤرخين قصة ابن طفيل إلى ابن سينا، كما فعل ابن خلدون[١١]، كما بين أنها أقرب ما تكون إلى ابن طفيل لا إلى ابن سينا.

وإذا عدنا إلى المعاصرين لنا فإننا نجدهم اعتمدوا غالبا على ما زعمه الصفدي، ولم يفحصوا هذه العلاقة فحصا كافيا، فرأى بعضهم أنها معارضة

(٩) ابن طفيل، حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين، الخانجي، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٣.
(١٠) هو أول من نشر الرسالة الكاملية مع زميله شخت أكسفورد سنة ١٩٦٨.
(١١) المقدمة، بولاق، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص ٢٤٦، انظر: ما يرهوف، المرجع السابق ص ٢٩، وربما نشأ الخطأ من ترادف العنوان في القصتين.

http://kotob.has.it

لابن سينا وابن طفيل معا[١٢]، ولم يأت بأي دليل، وذهب آخرون إلى أنها معارضة لابن طفيل في قصته[١٣] ولم يأت بما يقنع، ومنهم من جعله يعارض ابن سينا وحده تارة، ويعارض ابن سينا وابن طفيل معا تارة أخرى[١٤]، واحتج بأن ابن النفيس يرد على ابن سينا في أن العقل يصل بانفراده إلى الحقائق التي دعا إليها الأنبياء، والواقع أن ابن النفيس نفسه يذهب إلى هذا في قصته، وادعى هذا الباحث أن ابن سينا أنكر النبوة، وهذا لم يذكره ابن سينا في قصته مع أنه في كتبه الأخرى «كالشفاء» في قسم الإلهيات استدل على ضرورة النبوة بالأدلة نفسها التي جاء بها ابن النفيس في قصته، كما يأتي الحديث على ذلك عندما نشير إلى رأيه في الاستدلال على النبوة[١٥]. كما ادعى أن ابن سينا يرى أن النبوة والولاية يمكن اكتسابهما ولم يأت بأي دليل على ذلك من نصوص ابن سينا[١٦] وما يمكن أن نجعله معارضة لابن النفيس إنما هو حشر الأجساد والنفوس معا، لأن ابن سينا يذهب إلى أنه يتعذر عقليا الاستدلال على حشر الأجساد، وأما ما جاءت به الشريعة من حشر الأجساد فهو مقبول عنده، لأنه وحي، وقد كتب هذا وصرح به[١٧] كما اتهم ابن طفيل بأنه يقول بالحلول[١٨]، وهذا لا أصل له في قصته.

(١٢) ماهر عبد القادر محمد علي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، بيروت ١٩٨٨، ص ١٠٧.

(١٣) ألبرت إسكندر .Dictionary Scientific Biography New York Vol. 9 p. 604

(١٤) عبد المنعم محمد عمر، مقدمة تحقيقه للرسالة الكاملية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٤١، ١٥٢، هامش ٤ ويذكر أنه قلد ابن طفيل في العنوان ص ٤٧، ومعارضته لابن سينا ص ٤٧ وأنها حاكى فيه رسالة حي بن يقظان للرئيس ابن سينا ص ٥ من مقدمة لجنة إحياء التراث لتحقيقه للرسالة . كما ذهب بول غليونجي إلى أنها معارضة لابن سينا في كتابه : ابن النفيس ص ١٠٨.

(١٥) عبد المنعم محمد عمر، المصدر نفسه ص ٨٠.

(١٦) المصدر نفسه ص ٨٢.

(١٧) ابن سينا، الشفاء، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٥٣،١٩٦٠ ج٣ ص ٤٢٣، النجاة، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٩١، الرسالة الأضحوية، القاهرة ١٩٤٩ ص ١٢،١٥ من مقدمة المحقق: سليمان دنيا.

(١٨) المصدر نفسه ص ٩٤.

http://kotob.has.it

واقتصر دارسون آخرون على المقارنة بين عنواني القصتين لابن النفيس ولابن سينا باعتبار ذلك معارضة ابن النفيس لابن سينا «على الفور»[١٩] متبعا في ذلك فيما يبدو دراسة أخرى[٢٠] ذهب صاحبها فيها إلى إنكار ابن سينا للنبوة، وهذا لا برهان له به: «و تحت العنوانين نجد اختلاف ابن النفيس مع ابن سينا على خط مستقيم (.....) ثم يبدأ» كامل«بتقرير ضرورة النبوة»[٢١]، وابن سينا قرر ضرورة النبوة أيضا كما أشرنا من قبل، ولم ينسج ابن طفيل على منوال ابن سينا في قصته حي بن يقظان[٢٢] بل لم يذكرها في مقدمته، وإنما ذكر «أبسال وسلامان» فقط. وهي تختلف عن قصة ابن سينا اختلافا كبيرا.

ويرى بعض الدارسين أن ابن النفيس عارض ابن سينا في قصته و «نهج نهجه»[٢٣] والواقع أن قصة حي بن يقظان لابن سينا تختلف أيضا اختلافا واضحا عن قصة ابن النفيس في صيغتها الرمزية ومحتواها.

ومن الباحثين الأوائل في هذا المجال أحمد أمين، بيد أنه لم يكن يعرف قصة ابن النفيس لأنها لم تطبع، ولم تكن معروفة، ولذلك اقتصر على دراسة قصتي ابن سينا وابن طفيل، وأضاف إليهما قصة «الغربة الغربية»[٢٤] لشهاب الدين السهروردي (ت ٥٧٨ هـ) وقارن بينها فرأى أن ابن سينا كان

---

(١٩) يوسف زيدان، مقدمة تحقيقه لرسالة الأعضاء لابن النفيس ، الدار المصرية اللبنانية ١٤١١هـ/١٩٩١م ص ٥٩ .

(٢٠) عبد المنعم محمد عمر، مقدمة تحقيقه للرسالة الكاملية.

(٢١) يوسف زيدان، المصدر السابق ص ٦٠، وتبني رأي الصفدي والعمري في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٩ / م تاريخ) ص ٢٢٧. وانظر شرح فصول أبقراط لابن النفيس ن تحقيق يوسف زيدان وماهر عبد القادر، الدار المصرية اللبنانية ١٤١١هـ/١٩٩١م ص ٦٠.

(٢٢) يوسف زيدان، مقدمة تحقيقه لرسالة الأعضاء لابن النفيس ، ص ٥٩ حيث ذكر أنه نهج منهجه.

(٢٣) محمد رواس قلعه جي، ابن النفيس وفلسفته العقلية، ١٤١٧هـ ص ٤٠.

(٢٤) قرأها أحمد أمين «الغربية الغربية» ص ٣٥، ٣٩، والقراءة الصحيحة «الغربة الغربية».

http://kotob.has.it

عقليا متفلسفا في قصته، وأن ابن طفيل كان عقليا متصوفا، أما السهروردي فقد كان متصوفا بالدرجة الأولى، وأنه وصل إلى أقصى ما يمكن من معرفة، وأن أسلوب ابن سينا والسهروردي في قصتيهما أسلوب رمزي غامض، أما ابن طفيل فأسلوبه أدبي سلس واضح. ويمكن وصف أسلوب ابن النفيس بأنه واضح منطقي، لا غموض فيه، وسهل ممتنع، وإن كان بعض الدارسين تفطن إلى بعض الضعف في أسلوبه في مواضع من قصته [٢٥]. فحي بن يقظان عند ابن سينا هو العقل الذي رمز إليه بشيخ سائح ذي تجارب وخبرة، ورمز برفقائه الذين يجادلونه إلى الشهوات والغرائز فأدار حوارا بين العقل والقوى النفسية الأخرى كالتخيل الذي وصفه بأنه «شاهد الزور» [٢٦] ووصف «القوة النفسية» بأنها شيء «أهوج» [٢٧] كما وصف «القوة الشهوانية» [٢٨] بأنها أمر «قذر، شره، قرم، شبق» وبيّن أن الذي يشفي من هذا كله هو «الغربة» عنها، والبعد عن مواطنها، ويبدو أن السهروردي أخذ عنوان قصته من هذه الكلمة التي استعملها ابن سينا، كما استعملها السهروردي (ت ٤٨١ هـ) في «الغربة عن الأوطان»، و «غربة الحال»، و «غربة الغربة» كما استعمل ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) «الغربة والاغتراب» [٢٩] وأكثر المفكرين تعبيرا عن الغربة أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠١ هـ): «وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه» [٣٠] بل

(٢٥) كاستعماله «لابد وأن» حوالي سبع مرات في صفحة واحدة ص ٤٧ من نشرة مايرهوف، واستعمل «لطيفة جدا كثيرا جدا» ص ٤٦ انظر ما يرهوف، مقدمته الإنجليزية ص ٣٥.

(٢٦) حي بن يقظان لابن سينا، تحقيق أحمد أمين ص ٤٤.

(٢٧) نفس المصدر السابق ص ٤٤.

(٢٨) نفس المصدر السابق ص ٤٤.

(٢٩) عبد الله الأنصاري الهروي، منازل السائرين ص ٨٨ واستعملها ابن باجه (ت ٥٣٣ هـ) وسمى الغرباء عند الصوفية بالثوابت «كالعشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع» رسائل ابن باجه الإلهية ص ٤٢ وقد ألف أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٦٠ هـ) «أدب الغرباء» في أخبار شعراء عبروا عن الغربة.

(٣٠) الفتوحات المكية ج١ ص ٦٩٦، انظر محمد راضي جعفر: «الغربة والاغتراب في التراث» المورد، بغداد مج ٢٥، العدد الأول ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ص ٦٤ ٦٩.

http://kotob.has.it

«من هو في غربته غريب» [٣١] ويشعرك ابن سينا في قصته بصعوبة التحكم في الغرائز، وأن الإنسان لا يتخلص منها إلا بالموت، ورمز بالمغرب إلى المادة (الهيولي) كما رمز بالمشرق إلى الصورة (المعني العقلي) وأن هذا المعني إنما يصل إليه الإنسان بالجد والتعلم، وباستعمال المنطق الذي رمز إليه «بالعين» هذا المعنى كما سماه الفراسة [٣٢] أيضا، وأشار إلى الأفلاك وإلى العقول العشرة وإلى سكك البريد الخمسة التي يقصد بها الحواس، وإلى العقل الفعال، ثم واجب الوجود،، علة العلل، واستعمل اصطلاح العين الحمئة الواردة في القرآن [٣٣] أي ملابسة الصورة الهيولي، ومسكن هذا الشيخ بيت المقدس، وترددت كلمة «غرباء وغريب» في النص أكثر من مرة [٣٤]، والجدير بالذكر أنه يصف قوة التخيل بأنها «قرن طيار» يُسوّل للإنسان «التكذيب بما لا يرى ويصور لديه حسن العبادة للمطبوع والمصنوع [٣٥] ويساود[٣٦] سر الإنسان، أن لا نشأة أخرى، ولا عاقبة للسوى والحسنى، ولا قيوم على الملكوت» [٣٧] وهذا معناه أن ابن سينا ينكر على هؤلاء الذين يذهب بهم الخيال إلى إنكار المعاد والآخرة والثواب والعقاب والقيومية الإلهية على الخلق.

وبهذا فإن ابن سينا أول من مهد لنشوء فلسفة الإشراق في رسالته الرمزية، وقد جرى السهروردي على منواله في رسائله الصوفية أيضا، ويذكر في مقدمة قصته «الغربة الغربية» أن مصدر هذا النص هو حي بن يقظان

(٣١) المصدر السابق ص ٤٤.
(٣٢) حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين ص ١٨ (مقدمة).
(٣٣) الكهف ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ آية ٨٦.
(٣٤) حي بن يقظان لابن سينا، تحقيق أحمد أمين ص ٤٧.
(٣٥) أي يحسّن له العبادة الطبيعة والأصنام المصنوعة.
(٣٦) يغالب ويكابد أي يسول للإنسان ويلقي في قلبه.
(٣٧) بن يقظان لابن سينا، تحقيق أحمد أمين ص ٥١.

http://kotob.has.it

لابن سينا، وأن قصته إتمام لما أشار إليه ابن سينا، فأراد أن يذكر «طورا» [٣٨] آخر، وهو طور الكشف الصوفي، فكأن ابن سينا كان منهجه منهج الفلسفة البحثية، ومنهج السروردي منهج الفلسفة الذوقية أو الحدسية، أن إن شئت الدقة قلت منهج الفلسفة الإشراقية، وقامت قصته أيضا على سياحة، قام بها مع أخيه عاصم من أرض ما وراء النهر، أي من المشرق إلى بلاد القيروان أي المغرب، وأنهما هو وأخاه ينسبان إلى شيخ يماني مشهور بـ «هادي ابن أبي الخير اليماني» واستعمل كثيرا من اصطلاحات القرآن وألفاظه، خاصة ألفاظ سورة الكهف مثل السفينة، الملك، «غصباً» يأجوج ومأجوج، ومن سور أخرى متعددة [٣٩]، ويقصد بأخيه «عاصم» القوة العقلية التي تعصم من الضلال ، و «بما وراء النهر» الملأ الأعلى، وببلاد المغرب المادة المظلمة أو العالم الهيولاني، وبالشيخ الهادي العقل الفعال، واليمن رمز للشرق نقيض القيروان، ويقصد بالهدهد قوى الإلهام، ويقصد بيأجوج ومأجوج الخيالات الفاسدة [٤٠]، وهكذا فهي جملة رموز يحتاج إدراكها إلى مرانة في الفلسفة الإشراقية والعودة إلى شراحها، فهو منفي في هذه القصة إلى أرض الغربة والمادة المظلمة المغربية، فأخذ به الحنين إلى النور إلى أرض المشرق ، والحكيم هو الذي يسعى جاهدا وراء الحقائق، ويقتضي ذلك منه ان يقوم برحلة ينتقل فيها من ظلمة الجهل إلى نور العرفان، بسفره من المحسوس إلى المعقول، إلى الاتصال، إن هذا الاتصال لا يلغي هويته ولا يلزم منه الاتحاد كما بين في آخر القصة «إلا أن أبي [٤١] ذكرني بأنه لابد لي من العودة إلى الحبس الغربي، لكنه

(٣٨) وسماه «الطور الأعظم» انظر مجموعة مصنفات شيخ إشراق تحقيق هنري كوربين، طهران ١٣٦٧ هجري قمري، ج١١، ص ٢٧٥.

(٣٩) المصدر نفسه ص ١٣٥ ـ ١٣٦ (نص الغربة الغربية):.

(٤٠) اعتمدت في تفسير هذه الرموز على شرح كوريان للقصة، مجموعة مصنفات شيخ إشراق ج١١، ص ٢٤٧ ٢٩٧.

(٤١) أي العقل الكلي.

http://kotob.has.it

بشرني أنه باستطاعتي ان أصعد إلى جنته هينا [٤٢] وأني سأتخلص يوما من الأسر في بلاد الغرب» [٤٣] وإذا كان لنا أن نحدد العلاقة بين ابن سينا و السهروردي فإن قصة حي بن يقظان لابن سينا هي نقطة البداية «للغربة الغربية [٤٤] وهو ما عبر عنه السهروردي صراحة. كما ذكر رسالة سلامان وأبسال لابن سينا [٤٥] في مقدمة قصته، ولا شك أنه استفاد منها، وهي تختلف عن القصة اليونانية التي نقلها حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) كما أشار إلى ذلك الطوسي وهنري كوربين [٤٦].

وقد ذهب ماكس مايرهوف (ت ١٩٤٥م) إلى أن قصة ابن النفيس أقرب ما تكون إلى قصة ابن طفيل، لأن الفكرة الأساس لديهما واحدة، وهي أن كائنا بشريا تولد تولدا ذاتيا تلقائيا في جزيرة خالية، واستطاع بعقله الوصول إلى الفلسفة الطبيعية، بما في ذلك التشريح، وعرف أيضا الفلسفة والحقائق الإلهية مستعملا الملاحظة والاستدلال العقلي أي الاستنباط منهجا إلى معرفة جملة المعارف البشرية المعروفة في ذلك العصر، وفي النهاية وصل بطل ابن طفيل إلى الحقائق الصوفية في عمقها، الأمر الذي لم يتحقق لابن النفيس في الكشف الصوفي، لأنه اقتصر على المنهج البحثي العقلي، ولم

(٤٢) أي الرياضة الروحية.

(٤٣) الغربة والغربية ضمن كلمات اللمحات للسهرودري تحقيق أميل معلوف، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩١، ص ٥١، انظر أحمد أمين، المصدر السابق ص ١٣٧، يختلف النص الذي أورده معلوف عن النص الذي حققه أحمد أمين وهنري كوربين.

(٤٤) هنري كوربين، المصدر السابق ص ٨٧ من النص الفرنسي.

(٤٥) طبعت تسع رسائل لابن سينا، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ١٧٣،١٧٥ ، وأشار إليها الطوسي في شرح الإشارات والتنبيهات. وقد يخلط بعض الباحثين بين هذه الرسالة، والقصة الهرمستية التي ترجمت من اليونانية إلى العربية نقلها حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) وكانت قد اكتشفت في الهرمين بمصر، في عهد الإسكندر الأكبر اكتشفها أرسطو بوصية من أفلاطون في زعمهم.

(٤٦) كوربين، المصدر نفسه ص ٨٨ (المقدمة الفرنسية).

http://kotob.has.it

يستعمل المنهج الذوقي أو الكشفي، وإنما زاد ابن النفيس على ابن طفيل الاستدلال على النبوة وعلى سيرة الرسول، في نشأته وخلقه، وعلى أحكام الشريعة وضرورة الخلافة، وضرورة المجتمع. كما استدل على الوقائع التاريخية للأمة الإسلامية في الماضي والحاضر بالنسبة إليه، واستدل أيضا استدلالا طبيعيا لا دينيا على نهاية العالم، وقيام الساعة. ولم يستعمل في ذلك أي آية أو حديث سوى الإشارة إلى عجب الذنب الذي ورد فيه حديث سنشير إليه في موضعه، إلا أن ابن طفيل تصور طريقة أخرى غير التولد الذاتي وهي الرواية التي ترى أن البطل ولد من أبوين وألقي في تابوت إلى أن وصل إلى تلك الجزيرة النائية فربته غزالة وعنيت به إلى أن ماتت، فابن طفيل احتاط للأمر كي لا يتهم بتقليد الفلاسفة القدماء في القول بالتولد الذاتي، وهو أمر لا يقبله الدين، كما أن ابن طفيل صور بطله، بأنه بدا رضيعا، أما ابن النفيس فقد أخرجه من الكهف في سنة متقدمة بين ١٠ـ ١٢ سنة، كما أن حياة الإنسان لا تكون عند ابن النفيس إلا في مجتمع متحضر، لأنه مدني بالطبع أما ابن طفيل فيمكن التوحد عنده والعزلة [٤٧].

والجدير بالذكر أن الذي علّم حي بن يقظان الأحكام الدينية العملية عند ابن طفيل هو ذلك الزائر من جزيرة أخرى، ومن أهل دين سماوي، سواء كان ذلك في العبادات أو الأحكام الاجتماعية، ولكن ابن النفيس جعله يصل بنفسه، بالاستدلال والاستنتاج العقلي إلى هذه الأحكام التي يجب أن يأتي بها صاحب النبوة، واهتدى إلى ضرورة النبوة بعقله، كما اهتدى إلى حتمية سير التاريخ، الذي حدد مصير الأمة ونهاية الكون، ولم يشر ابن طفيل إلى هذا كله، كما أن ابن طفيل وفق بين الفلسفة والشريعة، وبين التصوف والعقل أيضا، أما ابن النفيس فكان متكلما مسلما على طريقة أبي المعالي الجويني وغيره، حيث

(٤٧) ماير هوف، المصدر نفسه ص ٣١.

http://kotob.has.it

برهن على معقولية العلوم الإسلامية من تفسير القرآن والحديث ومعرفة معانيهما، كما استعمل فكرة مراعاة الأصلح [٤٨] التي استعملها المعتزلة والماثريدي أبو منصور [٤٩] (ت ٣٣٣ هـ) معتمدا على العقل ومنطقه الذي ينتقل من مقدمات مسلّم بها إلى نتائج لازمة عنها بالضرورة، كما هو الأمر في القياس الصوري، واتخذ في هذا المجال طريقة المثريدية التي أخذ بها الأحناف مع أنه شافعي[٥٠] وهي أنه يمكن الوصول إلى معرفة الله بالعقل، وأنه يجب في نظرهم بالضرورة إرسال نبي، قال الماثريدي: «يجب القول بالرسالة بضرورة العقل» [٥١] فالعقول في حاجة إلى الرسل، واستدل على ذلك بعدة أدلة، وأنه «يجب الأمر والنهي بضرورة العقل» [٥٢] لأن ذلك توجبه حكمة الله في ذاتها، أما الإشعرية، وغالبية الشافعية على طريقتهم، فإنه لا يرون وجوب أي شيء على الله بالعقل، بل ذلك كله في حدود الإمكان العقلي فقط، وليست هناك أية ضرورة توجب الأصلح على الله.

وقد وافق الأستاذ الدكتور أبو شادي الروبي (مايرهوف) في القول بأن قصة ابن النفيس ذات علاقة بابن طفيل لا بابن سينا كما زعم الصفدي ومن تبعه، «بل هي أقرب في بنائها ومضمونها إلى رسالة أخرى بالاسم نفسه كتبها ابن طفيل» [٥٣] ورأى أن ابن طفيل يميل إلى التأمل الصوفي، وابن النفيس إلى الفلسفة العقلانية، ويمتاز أيضا بالحديث عن المستقبل، فوصفه بأنه استعمل الخيال العلمي [٥٤]. اذا ابن النفيس لم يكتب للرد على ابن سينا، ولا يوجد أي

(٤٨) الماثريدي، كتاب التوحيد، تحقيق فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (دون تاريخ) ص ١٠.
(٤٩) واستعمل العناية التي عني بها ابن سينا وابن رشد أيضا.
(٥٠) ما يرهوف، المصدر السابق، ص ٣٢، ٧٨، ٧٩.
(٥١) كتاب التوحيد ص ١٧٩ تجب الحاجة إليها دينا ودنيا. وانظر ص ١٨١ ١٨٢.
(٥٢) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٥٣) أبو شادي الروبي، ابن الفنيس فيلسوفا ص ١١٣.
(٥٤) المصدر نفسه ص ١٣١.

http://kotob.has.it

دليل سوى وهم وهمه الصفدي، وتمحل بعض أتباعه للإتيان بأدلة لا صلة لها واضحة بما ورد في قصة ابن سينا تشير إلى أنه يرد عليه.

بقى أن نشير إلى قصة أخرى صاغها عبد الرحمن الجامي (ت ٨٩٨ هـ) الخصم اللدود لابن سينا وفلسفته ومؤلفاته التي هاجمها هجوما عنيفا: «لا تطلب نور القلب من عين ابن سينا، ولاتطلب النور من عين الأعمى» [٥٥]، وينصح ابنه بالابتعاد عن كتب الفلسفة: «إن أمامك حقائق السماء فماذا في خرافات الأرض»[٥٦] ويدعو إلى ترك العقل والمنطق، وإلى البحث: «في رسالات الكشف والشهود وفي مقالات أهل الذوق والوجدان» [٥٧] وهو من أتباع ابن عربي ومن مريدي الطريقة النقشبندية التي أنشأها بهاء الدين محمد البخاري نقشبند (ت ٧٩١ هـ). هذه القصة عنوانها: «سلامان وأبسال»، استند فيها إلى القصة اليونانية التي ترجمها حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) ولم يعتمد فيها على ابن سينا، و لاعلى ما لخصه الطوسي منها [٥٨]، لأنه لا يرضى عن الطريقة العقلية، واستسلم تماما للطريقة الذوقية، والقصة اليونانية في وجهتها الرئيسة عقلية، ولكن الجامي صاغها صياغة صوفية كما استوحي فريد الدين العطار (ت ٦٢٧ هـ) [٥٩] رسالة ابن سينا «رسالة الطير» ونحا بها نحوا صوفيا، وهي في مضمونها السينوي عقلية، ويرى الجامي أن «في كل صورة من القصص حصة من المعنى، لأهل الدقائق» [٦٠] فهو اختار

(٥٥) عبد الرحمن الجامي، سلامن وأبسال ترجمة ودراسة عبد العزيز بقوش، مكتب الشباب، القاهرة، ١٩٧٦م، نقلا من كتابه «تحفة الأحرار».
(٥٦) المصدر نفسه ص ٥.
(٥٧) المصدر نفسه ص ٧.
(٥٨) المصدر نفسه ص ١٤٣- ١٦١.
(٥٩) المصدر نفسه ص ١٣١.
(٦٠) المصدر نفسه ص ١٣١.

http://kotob.has.it

صيغة القصة لما فيها من معاني روحية تتناسب مع القصة الشعرية لتقرأ فيها القلوب معاني روحية عالية.

وخلاصة القصة أن ملكا يونانيا أراد أن يخلفه في ملكه ابن من أبنائه، ولكن لا يرغب في الزواج، ولا في النساء، فأشار عليه أحد الحكماء بأن يأخذ معه نطفة، وأن يودعها في مكان مناسب، ففعل ذلك، وبعد تسعة أشهر تكون من تلك النطفة ولد، وخرج إلى الوجود[٦١] وسماه «سلامان» واختار له ظئرا جميلة، فما أن كبر الشاب حتى تعلق بهذه المرضعة البارعة الجمال، كما شغفت به أيضا، فنصحه والده والحكيم بالابتعاد عنها، مما اضطره إلى الفرار بها بعيدا عنهما إلا أن والده كان له مرآة يتجلى فيها كل شيء وإن بعد مكانه ـ مثل الرادار في أيامنا هذه ـ واستمر الجهاد إلى أن رمى سلامان نفسه وعشيقته في النار، إلا أن والده عمل على خلاصه وترك صاحبته تحترق، وعمل الحكيم حيلا كثيرة حتى أنساه إياها فترك له والده وصية ولاية الملك، واشتملت القصة على عدة رموز صوفية، ولقد أخذ من الفلاسفة بعض هذه الرموز مع عدائه الشديد لهم، فالملك عنده هو العقل الفعال، وهو المؤثر في العالم دون أن يتصل به، والحكيم هو فيض هذا العقل على العالم، وروحه هي النفس الناطقة أو العقل الإنساني وهي وليدة العقل بلا علاقة مادية، ولذلك ولد الولد دون أب، وهذا الابن هو «سلامان» ورمز إلى بأبسال إلى الشهوة والطبيعة، والنار هي الرياضة التي تذهب بالشهوة وتسيطر على الغرائز، وعشق سلامان لأبسال هو الميل إلى الذات، ومزج هذه الترجمة إلى الفارسية بقصص صغيرة لها طابع فارسي من إبداعه ليؤنس القارئ بهذه الاستطرادات المتعددة، وإنما سُمى «سلامان» لسلامته من كل عيب [٦٢].

(٦١) هذا أصل فكرة الاستنساخ اليوم في الهندسة الوراثية فكم من خيال تحقق.
(٦٢) الترجمة العربية ص ٨٠.

http://kotob.has.it

وهـذه القصـة ذات النزعة الصـوفية لم تسـلم من أخذ أمور الفلاسـفة ـ كما قلنا ـ وإن اختلف مع ابن سينا في كون أبسال رمزا للشهوة وهي عند ابن سينا رمز لدرجة المعرفة.

وختم قصتة بالدعوة إلى تأمل معناها لأنها تجربة عارف بأسرار الطريق: «وحيث إن هذه القصة قد انتهت، فعليك بالظفر بمعناها، وقد وضعها شخص عارف للطريق يرشدك إلى أسرار الطريق» (٦٣).

وذهب إلى أن العشق هو طريق السعادة بمراحله: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وأن كل ما هو موجود يضاف إلى المعشوق «وكل ما هو عدم يضاف إلى العاشق (٦٤)، فالغنى صفة المعشوق والفقر صفة العاشق، وهو في هذا يذهب مذهب ابن سينا بلا قصد منه، كما نجد العنصر السياسي في قصيدته، فالحاكم عنده لابد أن يكون عالما أو صديقا لعالم، وأن من صفات الحاكم العادل والحكمة والشجاعة والعفة والكرم» فالملك وعبادة الغانيات لا يجتمعان (٦٥) وأن يكون له وزير عالم أمين، وأنكر الظلم إنكارا شديدا لما يؤدي إليه من خراب «فقد قال حكيم حكمة مفيدة، بالعدل يقول الملك لا بالدين ـ فالكافر الذي يسعى لتحقيق العدل خير للمملكة من المؤمن الظالم» (٦٦) وهذا العنصر السياسي يلتقي فيه مع ابن النفيس، وإن زين الأخير جرائم بيبرس وغدره، وامتدح شجاعته وقدرته على القضاء على خصومه.

ولكن يلاحظ أن الجامي شديد الاستهانة بالمرأة مع قدرته الأدبية الفائقة على تصوير جمالها ومفاتنها: «فرغم من أن وجهها مرآة للصفاء فإن هذه

(٦٣) الترجمة العربية ص ١٣٨.
(٦٤) المصدر نفسه ص ١١ـ ١٢ .
(٦٥) الترجمة العربية ص ١٣٨.
(٦٦) المصدر نفسه ص ٦٩.

http://kotob.has.it

المرأة خالية من كلمة الوفاء»، فمن الذي قد رأي وفاء في الدنيا بأسرها؟ ومن رأى من النساء غير ماكرة وغادرة «[٦٧] ولم تسلم المرأة من ابن النفيس أيضا.

معالم من فلسفة ابن النفيس:

يحسن أن نشير إلى معالم رئيسة من فلسفة ابن النفيس، وإن لم تتوفر لدينا مصنفاته كلها مطبوعة لتكون النظرة شاملة، ومع ذلك نعتمد على توفر، لجمع أشتات أفكاره في معالم عامة، يمكن تفصيلها فيما بعد، إذا توفرت نصوص أخرى من خلال كتبه الفلسفية، كشرحه للإشارات، وشرحه للهداية لابن سينا [٦٨] وكتابه «الوريقات» [٦٩] في المنطق، ومن خلال مؤلفاته الطبية أيضا.

١ ـ نظرية المعرفة:

يمكن القول بأن ابن النفيس استعمل في طريقه إلى معرفة الحقائق الحس والعقل، فاستعمل في معرفة المحسوسات مشاهدتها، وذلك في علوم الطبيعة والطب، والأجرام السماوية، والآثار العلوية، وذكر أن العلم الطبي عنده يقوم على التجربة والقياس، وعلى التجربة وحدها أحيانا، فيما تتوقف معرفته عليها، والطب ذاته عنده وعند ابن سينا ومن قبلهما حنين بن إسحاق جزءان: جزء نظري، وجزء عملي، واستعمل الاستقراء [٧٠] ولا يستعمل الكتب والنصوص في أبحاثه بقدر ما يعتمد على تجاربه ومشاهداته واستنباطاته كما نرى ذلك في رسالته الكاملية [٧١]، وإن كان يزعم (شاخت) أن منهجه

(٦٧) المصدر نفسه ص ٧٨.
(٦٨) لم يعثر عليها لحد اليوم.
(٦٩) مخطوطة بمكتبة بواليانا بأسكفورد.
(٧٠) ابن النفيس، شرح فصول أبقراط، تحقيق يوسف زيدان، وماهرعبد القادر، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م، ص ١٨١.
(٧١) ألبرت إسكندر، مصدر سابق، ص ٦٠٤.

http://kotob.has.it

نظري، وتفكيره تفكير مجرد، حتى في اكتشافه للدورة الدموية الصغرى، قياسا على طريقته في الرسالة الكاملية [٧٢]. ويصفه بأنه شارح أساسا ولكنه مستقل الفكر[٧٣] ويستعمل الخيال العلمي لإدراك مستقبل العالم ومستقبل التاريخ، باعتماده على علم الكون [٧٤] وعلى الاستدلال المنطقي. ويرى الروبي أنه يجمع بين التجربة والتأمل الغائي[٧٥] فالعقل المحض هو السبيل للوصول إلى الإلهيات والنبوات والأحكام ومستقبل الأمة[٧٦]. فالتفكير الصحيح إذا اعتمد عليه الإنسان فإنه يصل إلى الأمور الشرعية، كما ذهب إلى ذلك الجويني والغزالي والرازي (ت ٦٠٦ هـ) كما نقل ذلك ابن تيمية [٧٧] (ت ٧٢٧ هـ) وبين في كتابه «مختصر أصول الحديث» أن الحديث لا يفيد اليقين وإن كان بلغ درجة عالية من الصحة، لكن المحدث اعتمد في تصحيح الحديث على اجتهاده، فيمكن أن يخطئ أو يقع في وهم «وأما الأخبار التي بأيدينا الآن فإنما نتبع فيها غالب الظن، لا العلم المحقق، خلافا لقوم.

[وقال قوم: إن جميع ما اتفق عليه مُسلم والبخاري فهو مقطوع به، وأن العلماء اتفقوا على صحة هذين الكتابين. والحق أنه ليس كذلك، إذ الاتفاق إنما وقع على جواز العمل بما فيهما، وذلك لا ينافي أن يكون ما فيهما مظنونا بصحته، فإن الله تعالى لم يكلفنا الوقوف عند العلم، ولذلك يجب الحكم بموجب البينة» [٧٨]] وبهذا فهو مستقل في عقله، وأكد على ذلك في كتابه شرح التشريح: «وأما منافع كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد في تعرفها على ما

(٧٢) دائرة المعارف الإسلامية، ص ٨٩٨ ومايرهوف، المصدر السابق ص ٣٢.
(٧٣) المصدر نفسه ص ٨٩٧.
(٧٤) أبو شادي الروبي، المصدر السابق ص ١١٣.
(٧٥) المصدر نفسه ص ١١٨.
(٧٦) قلعة جي، المصدر السابق ص ٤٤.
(٧٧) المصدر نفسه ص ٤٤ في كتابه: درء تعارض العقل والنقل، ج١ /٤.
(٧٨) مختصر أصول الحديث، ورقة ٨ ـ ٩ يوسف زيدان، مقدمة رسالة الأعضاء لابن النفيس ص٥٥ .

http://kotob.has.it

يقتضيه النظر المحقق، والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه» [٧٩] لأن غايته الحق واتباعه: «رأينا أن نسلك طريقنا في اتباع الحق ونصرته واجتناب الباطل ومدافعته» [٨٠] كما ذكر في مقدمة كتابه «شرح فصول أبقراط» هذا المعني: «أما نصرة الحق وإعلاء مناره، وخذلان الباطل وطمس آثاره، فأمر التزمناه في كل فن» [٨١]. وأن بحثه يقوم: «على الوجه المحقق ولا علينا من مخالفة المشهورين» [٨٢].

بدأ بطله «كامل» البحث باستعمال الحواس باعتبارها آلات للإدراك الحسي، لأن الإدراك الحسي هو وظيفة الحواس، ويعبر عن الوظيفة بالمنفعة، فمنافع الآلات الحسية إنما هي إدراكاتها، ولم يكتف بالأعضاء الظاهرة بل أخذ يكتشف الأعضاء الباطنة بتشريح الحيوانات التي أصابها الموت [٨٣] بوسائل بدائية وتبين وظائف الأعضاء الباطنة أيضا بما في ذلك القلب والرئة التي يتم بها التنفس إلى أن استقصى هذه الأعضاء عضوا عضوا: «حتى وقف على جملة كثيرة من علم التشريح» [٨٤].

ثم انتقل إلى عالم النبات في تأملاته وفحصه فعرف أنواعها وأنواع الفواكه، كيف تتغذى وتتوالد [٨٥] ومنها أخذ يتأمل في أحوال الأجسام العلوية كالمطر والرعد والبرق، ومنها إلى الأجسام السماوية، ونظامها وحركاتها[٨٦].

(٧٩) قلعة جي، المصدر السابق ص ٢٩ ـ ٣٠ مقدمة كتاب شرح التشريح.

(٨٠) مقدمته لشرح تقدمة المعرفة لبقراط، مخطوط مكتبة الأوقاف، حلب، سوريا، انظر سلمان قطاية، المصدر السابق ص ٨٦ ، وقرأ «ملاحقته» بدل «مدافعته».

(٨١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٨٢) شرح القانون، تحقيق سلمان قطاية وبول غليونجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٤٣٣.

(٨٣) احتاط في التشريح وأنه يكون في الحيوان الميت الذي يصادفه ولا يعمد إلى قتله لهذا الغرض.

(٨٤) الرسالة الكاملية ص ٦ ـ ٧ من نشرة مايرهوف وشخت.

(٨٥) المصدر نفسه ص ٨.

(٨٦) أشار عند حديثه عن الأجسام السماوية إلى مؤلف له في الفلك وهو غير معروف ولا أشار إليه مترجموه قال: ونحو ذلك على ما بيناه في غير هذا الكاتب ص ٨.

http://kotob.has.it

وعندما قوي عقل «كامل» وبلغ رشده وجاد فكره انتقل للتفكير في هذه الموجودات كلها، ألها موجد أم هي موجودة بذاتها؟

هذه تطبيقات لمنهج فحصه وبحثه عن معرفة حقائق الأشياء، وكذلك فعل سلفه ابن طفيل في فحص الأشياء في هذا النسق نفسه، بيد أن ابن طفيل خطا خطوة أخرى تجاوزت الإدراك الحسي والعقلي إلى مرحلة يراها أعلى وأسمى ألا وهي الطريقة الذوقية والمشاهدة: «حتى استقام لنا الحق أولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة، وحينئذ رأينا أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنّا» [٨٧]، ولكن هل كان لابن النفيس ميل ما إلى الروحانية الصوفية، حدثنا ابن النفيس أنه كان قد أصيب بمرض الاستسقاء الطبلي، ولم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه، فيئس من الأطباء وظن أنه قد قرب أجله، وآثر الاجتماع بالزهاد والفقراء أي الصوفية يجتمعون إليه ليلا يتلون القرآن وينشدون الأشعار بأنغام لذيذة، فوجد في ذلك راحة، ولزم عشرتهم فما مضى سوى ما يقرب من عشرين يوما حتى أصبح بدنه في غاية الصحة وكانت سنه في ذلك العهد بلغت ما يقارب من اثنين وعشرين سنة، وحمله ذلك على تعلم الطب لينفع به الناس بسبب سوء ظنه في الأطباء [٨٨] بدلا من أن يحمله على أتباع طريقة الصوفية التي ثبت عنده صلاحيتها. ولكن لا يبدو في كتبه التي أطلعنا عليها أي ميل للتصوف.

وفي تفرقته بين العلوم الشرعية والعقلية ذهب إلى أن العلوم الشرعية ويسميها السمعية: «التي تستعمل في حججها المقدمات المسموعة [٨٩] أما

(٨٧) ابن طفيل، المصدر السابق ص ٥٩ والأمر نفسه في قصب ان طفيل بعد أن تكلم على الأفلاك قال: «ومعرفة ذلك تطول وهو مثبت في الكتب» ص ٩٤ وهذا دليل على أنه على معرفة تامة بابن طفيل وبناء قصته.

(٨٨) يوسف زيدان، مقدمة تحقيقه لرسالة الأعضاء لابن النفيس نقل نصا له من شرحه على كليات القانون لابن سينا.

(٨٩) مختصر أصول الحديث ورقة ٢.

http://kotob.has.it

العلوم العقلية فهي: التي يقتصر في حججها على المقدمات العقلية كالطب والهندسة ونحوهما [٩٠] يبد أنه أشار إلى أن العلوم السمعية أو النقلية تستعمل أيضا الحجج ذات المقدمات العقلية وذات المقدمات السمعية معا [٩١]. أما العلوم التي يسميها بالعلوم الأدبية فهي بخلاف ذلك لأنها تستعمل الاستدلال في بعضها كعلم الصرف ومنها ما يعتمد على الاستعمال والسماع دون استعمال الرأي، فالسماع من أهل اللغة هو القانون المتبع فيها [٩٢]. وأما علم الكلام فنظره إنما: «هو في ذات الله تعالى، وما نسب إليه تعالى من الصفات ونحوها فلذلك هو أشرف هذه العلوم» [٩٣] وأشار إلى أن له كتبا أصولية [٩٤].

وخلاصة القول أن المعرفة عند ابن النفيس تقوم على المشاهدة وإدراك الحسي فيما طريقه ذلك من العلوم التجريبية كالطب، وعلى الاستدلال العقلي والاستنباط من مقدمات مسلمة إلى نتائج تلزم عنها بالضرورة، وفيما طريقه ذلك كالإلهيات والعلوم العقلية الأخرى، فهو يقول في الطب مثلا: إنه صناعة تقوم على التجربة وهي صعبة وخطرة باعتبارها: «امتحان فعل ما يورد على البدن»، ولأن اكتساب هذه الصناعة: «إنما يتم بالتجربة وهي خطرة، وبالقياس وهو عسر» [٩٥] وأما في الأمور الإلهية فقد أشار الشرع: «إلى البراهين العقلية في الأحكام التي لابد فيها من اليقين، وهي التي يتوقف عليها الإيمان» [٩٦] وبين أيضا أن: «ما يفتقر فيه إلى اليقين كالعلم بالله تعالى

(٩٠) المصدر نفسه ورقة ٢.
(٩١) المصدر نفسه ورقة ٢.
(٩٢) المصدر نفسه ورقة ٢.
(٩٣) المصدر نفسه ورقة ٣، يمكن بحث تصنيفه للعلوم بحثا مستقلا.
(٩٤) المصدر نفسه ورقة ٣..
(٩٥) شرح فصول أبقراط ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٩٦) مختصر أصول الحديث ورقة ١٠.

http://kotob.has.it

وبصفاته فإن ذلك لا يجوز العمل فيه بهذه الأخبار» أخبار الآحاد«لأنها لا تفيد العلم، والظن في ذلك غير جائز، فكيف يمكن تبليغ هذه إلى الناس كلهم؟ فنقول: إن ذلك يمكن بأن يرسل فيها الآحاد أيضا، ولكنه يشير في كلامه إلى البرهان العقلي بما يخبرهم به، فمن تكون له فطانة إذا بلغه الخبر ظن أولا ذلك لأجل رواية الواحد، ثم ينتبه لذلك البرهان فيستفيد به الجزم بطريق العقل المستفاد بتبليغ النبيﷺ، وتنبيهه على ذلك البرهان، وأما من ليس له فطانة فقد يتعلم ذلك على طول من الزمان، وقد يهاجر [٩٧] إلى النبيﷺ فيستضيء به ذهنه سريعا» [٩٨].

فالبرهان العقلي إذن ضروري وإن كان بالإشارة إليه، والتنبيه عليه من خلال النصوص الشرعية نفسها فيما سبيله البرهان العقلي، وهذا النحو من التحليل في أخبار الآحاد، انفرد به ابن النفيس حسب علمي(*)، فالبرهان العقلي والاستضاءة الذهنية طريق ضروري في مسائل الاعتقاد.

٢ ـ وجود الله:

تساءل «كامل» هل هذه الموجودات مع ما فيها من إتقان وإحكام واتساق موجودة بذاتها أو بموجد آخر؟ إذا كانت موجودة بموجد غيرها فما هو؟ وما صفاته؟ [٩٩] وكان في شوق إلى معرفة ذلك كله.

استند ابن النفيس على فكرة منطقية عقلية وهي فكرة الإمكان، فما دام قد شاهد كثيرا من الأجسام المادية توجد تارة وتعدم أخرى، فإن وجودها

(٩٧) هذا يتصور في العهد النبوي.
(٩٨) المصدر نفسه ورقة ٩.
(٩٩) الرسالة الكاملية ص ٨.
(*) عمّار الطالبي.

http://kotob.has.it

وعدمها إذن ليس مستحيلا ولا واجبا، فهو إذن المفهوم الذي نسميه «ممكنا» والممكن هو الذي لا يكون وجوده ولا عدمه من ذاته، فهو إذن من غيره، وإلا تناقض مع ذاتيته التي هي الإمكان فقط، وهذا الغير لا يجوز أن يكون ممكنا وإلا احتاج إلى غيره في الوجود فيتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية، فلابد أن يكون واجبا مغايرا لجملة الممكنات كلها، إذن لا بد أن يكون «لهذه الموجودات موجد، هو واجب الوجود، وذلك هو الله تعالى» [١٠٠]. وهذا الدليل القائم على الإمكان لا على الحدوث هو دليل الفلاسفة الإسلاميين كالفارابي وابن سينا وليس أرسطيا ولا كلاميا، لأن فكرة الواجب والممتنع والممكن واستعمالها في الاستدلال على وجود الله تعالى من ابتداع الفارابي، وتبعه على ذلك ابن سينا، ولكن نجد الماثريدي أيضا استعمل هذه المصطلحات، وهو معاصر للفارابي، غير أن الماثريدي سماها الأصول الثلاثة: الممتنع والواجب والوسط، ويقصد بالوسط: الممكن [١٠١] ولم يستعمل ابن النفيس دليل الحركة، أو المحرك الأول الذي استعمله أرسطو [١٠٢] ولعل الماثريدي تأثر في ذلك بالفارابي، أما ابن النفيس فلا شك أنه تأثر بابن سينا الذي أخذ بهذا الدليل على وجود الله في الشفاء والنجاة، وهذا يشير إلى أنه لم يكن معارضا لابن سينا برسالته الكاملية، كما تأثر ابن النفيس أيضا بالجويني في كتابه الإرشاد [١٠٣]، غير أن الماثريدي استدل على الله بحدوث العالم لما يعتوره من الأكوان التي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، أشار إلى الإمكان والوجوب والممتنع في الاستدلال على النبوات إذ يجيء النبيﷺ لبيان الأولى من الإمكانات [١٠٤].

(١٠٠) المصدر نفسه ورقة ٨.
(١٠١) كتاب التوحيد ص ١٨٤.
(١٠٢) خلافا لما أشار إليه أبو شادي في بحثه ص ١١٨.
(١٠٣) نشرة الجزائر ١٩٣٨ ص ٣٦ وقد أشار إلى ذلك مايرهوف، المرجع السابق ص ٤٤.
(١٠٤) الماتريدي، المرجع السابق ص ١٨٤.

http://kotob.has.it

ويتفق أيضا ابن النفيس مع الماثريدي في دليل النظام والاتساق والحكمة في الموجودات، فجميع النباتات والحيوانات والأجرام السماوية وأحوالها إنما هي «الغايات ومنافع وأنه ليس شيء منها معطلا، وموجودا سدى» [١٠٥]، وعبر على لسان بطله «كامل» بأنه «شاهد حركاتها» الأجسام السماوية «ونظام بعضها مع بعض ودورانها» [١٠٦]. وفعل الله تعالى المتقن يدل على عمله، وكون «كل شيء على أفضل أحواله الممكنة» [١٠٧] يدل على عنايته بكل موجود. واقتصر في الاستدلال على صفات الله تعالى بصفة العلم والعناية في معرفة الله بالدليل العقلي، ولكنه في حديثه عن النبوة بين أنها تعرف الناس بصفات الله من أنه صانع وله من البهاء والجلالة ما لا نهاية له وأنه لا إله إلا هو وأنه «ليس كمثله شيء وأنه سميع عليم قادر» [١٠٨]. ولم يتكلم على الوحدانية ووجوبها فلسفيا كما فعل ابن سينا، وكذلك الماثريدي فإنه استعمل دلالة من الصفات كما فعل ابن سينا، وكذلك الماثريدي فإنه استعمل دلالة الحكمة الغائية في الاستدلال على وجود الله «وأصل ذلك أنه لا يعاني [١٠٩] منه (العالم) شيء إلا فيه حكمة عجيبة، ودلالة بديعة مما يعجز الحكماء عن إدراك ماهيته وكيفية خروجه على ما خرج (...) فهذه الضرورة وغيرها دلالة حكمة مبدعها وخالقه: [١١٠]. أما ابن طفيل فقد أطال في الاستدلال على حاجة العالم إلى محدث، وتردد بطله بين دليل الحدوث وغيره عدة سنين، وأخذ في النهاية بدليل الحدوث وهو دليل المتكلمين، ولم يستعمل دليل الإمكان

(١٠٥) الرسالة الكاملية ص ٨.
(١٠٦) المصدر نفسه ص ٨.
(١٠٧) المصدر نفسه ورقة ٩.
(١٠٨) المصدر نفسه ص ٢٦ ـ ٢٧.
(١٠٩) كذا في الأصل ولعل الصحيح: يعاين.
(١١٠) كتاب التوحيد ص ١٨.
(١١١) حي بن يقظان ص ٩٦ ـ ٩٧.

http://kotob.has.it

الفلسفي، ولعله فعل ذلك مجاراة للرأي العام، وإن كان استعمل دليل الحركة والمحرك الذي لا يتحرك تبعا لأرسطو [١١١]، ويستدل ابن طفيل بآيات قرآنية بنصها [١١٢] أما ابن النفيس فلم يذكر إلا آية واحدة [١١٣] ولم يذكر ولا حديثا واحدا بنصه، وأدلة ابن طفيل أكثر تفصيلا وذات مسحة فلسفية أعمق من أدلة ابن النفيس، ووصف ابن طفيل الله بأنه كامل مختار، خالق، وأنه: «هو الوجود والكمال وهو التمام، وهو الحسن، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم، وهو.. وهو...» [١١٤] ويرى بعض الأطباء أن «كامل» عند ابن النفيس وصل إلى معرفة الله بدراسة التشريح [١١٥] ، ولا توجد في قصة ابن سينا، ولا السهروردي ولا الجامي شيء من هذه الأدلة.

٣ ـ النبوة:

بعد أن أثبت ابن النفيس وجود الخالق للموجودات توجه فكره إلى حق الخالق في الطاعة والعبادة، وإلى الطريق إلى تعرف العبادة اللائقة بجلاله وقدم لإثبات النبوة بمقدمات، لأن النبوة هي طريق هذه العبادة، وهذه المقدمات هي أن الإنسان مدني بالطبع وأخذ هذه المقدمة من زيارة جماعة من التجار تعطلت سفينتهم فاضطروا للبقاء في الجزيرة التي كان يعيش بها «كامل» لإصطلاحها بسبب ما أصابها من عطل، بسبب ريح عاصف ضربتها، فاختلط بهم بعد نفره واستحسن طعامهم الصناعي الحضري، ولبس ثوبا

---

(١١٢) المصدر نفسه ص ٩٧ استدل بقوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ في خلق العالم وكذلك ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. الرسالة الكاملية ص ٢٦ وهي آية القصص /٨٨، وأية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأشار إلى أخرى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

(١١٣) المصدر نفسه ص ٩٩.

(١١٤) المصدر نفسه ص ٩٩.

(١١٥) سليمان قطاية، الطبيب العربي ابن النفيس ص ١٠٨.

http://kotob.has.it

صناعيا، وتعلم لغتهم، وعلم بأخبار مدنهم، وسافر معهم إلى جزيرة قريبة، وفهم أنه لا تجود عيشة الإنسان ولا تطيب إذا عاش متوحدا منفردا «بل لابد وأن يكون الإنسان مدنيا» [١١٦] والحياة الجماعية بالضرورة تحتاج إلى التعاون، وإلى معاملات كالبيع، والإجارة، وأن هذه المعاملة قد تؤدي إلى النزاع، ولذلك فإن الجماعة تحتاج إلى شريعة تفصل هذه المنازعة، يخضع لها الناس بالطاعة والقبول، وإنما يكون الشرع مقبولا إذا كان مصدره الله، ويلزم من ذلك أن يرد هذا الشرع على لسان شخص مصدق في إخباره عن الله، ولا يكون هذا إلا إنسانا، وأن تكون له معجزة تدل على أنه حق، وهذا هو النبىﷺ الذي تتم به الحياة الجيدة الطيبة النافعة، وهذا الإرسال للرسول واجب: «والله تعالى يعلم ذلك» نفعه العام وخيره فواجب بحسب عنايته وجود هذا النبيﷺ إذ من المستحيل أن يترك الله تعالى خلقه هذا النبيﷺ مع نفعه العام [١١٧].

وذهب إلى أن وظيفة الرسول أن يبلغ الناس الشرع، وأن يعرف الناس بجلال الله وعظمته وصفاته، وأن يعرفهم حال المعاد، وما فيه من سعادة أو شقاوة، ولا بد أن يكون هو خاتم الأنبياء، وأفضل ممن سواه، وأن يسلك بهم طريقا مهد له الأنبياء السابقون، ويكون تبليغ الشرع للناس بما هو من ذلك قريب إلى العقل ليكون قبوله أسهل [١١٨]، وهو في هذا الاستدلال على ضرورة النبوة عقليا لحاجة المجتمع البشري إلى شريعة تسير عليها حياتهم الاجتماعية، وتحدد طريقة عبادة الله عبادة شرعية، لا يستطيع

(١١٦) الرسالة الكاملية ص ١٠.

(١١٧) هذه هي مراعاة الأصلح عند المعتزلة والماثريدي، واعتمد في هذا كله على ابن سينا، في فكرة العناية، حيث بين أن النبوة ليست ممكنة فحسب وإنما هي ضرورية أيضا، أنظر: ميشال مرمورة، تحقيق، إثبات النوبات لابن سينا، دار النهار، بيروت ١٩٦٨ (المقدمة ص ٢٩). قال ابن سينا «صحت بالعقل ووجبت بالدليل» إثبات النبوات ص ٩٢ لأن ذلك «يقتضيه نظام الخير».

(١١٨) المصدر نفسه ص ١٢.

http://kotob.has.it

الإنسان أن يضعها بعقله باستقلال عن الوحي، فهذه الطريقة في الاستدلال هي طريقة ابن سينا الذي ذهب إلى ضرورة وجود شرع يرفع تنازع الناس في معاملاتهم، وهذه أيضا وظيفة اجتماعية للأنبياء، كما استعملها الماثريدي تبعا لما يراه من مراعاة الأصلح، وأن الرسالة واجبة بضرورة العقل للحاجة إليها دينا ودنيا[١١٩]، وهذه المسألة سماها ابن النفيس «العناية» التي تجعل لكل شيء غاية في هذا الوجود، على المنهج السينوي.

أما أسلوب التبليغ الذي ينبغي أن يكون سهلا واضحا فيبدو أن ابن النفيس يذهب في ذلك مذهب الفلاسفة في التفرقة بين الخاصة والجمهور، فبين ابن النفيس أن الدعوة ينبغي أن تكون بلين ورفق أولا، ثم إذا قوي وكثر أصحابه «فيجب أن تكون دعوته للناس حينئذ بالقهر والسيف» [١٢٠] وهذا خطأ واضح من ابن النفيس في تصوره الدعوة إذ هنا فرق بينها وبين القتال لرد العدوان، وتأمين حربة الدعوة.

ثم إن هذا النبي ينبغي أن يكون له كتاب لحفظ شريعته، ولأنه خاتم الأنبياء، ولذلك تتوفر الدواعي على حفظه، ويكون ذلك إذا كان أسلوبه ونظمه في غاية المتعة البيانية، فجاء القرآن غاية في الفصاحة والبلاغة [١٢١].

لذا ينبغي للدعوة أن تكون بأسلوب واضح سهل يتيح للناس الوقوف على مضامينها دون عسر، ولا يكلف الناس بما لا يسهل الوقوف عليه وإدراكه، الأمر الذي سلكه المتكلمون من القول «بأن الله تعالى ليس في داخل العالم ولا هو في خارجه، وأنه ليس بجسم ولا محسوس، ولا هو في جهة، ولا إليه إشارة حسية» [١٢٢]، فهذا النحو من الكلام إذا لم يفهمه الناس أصبحت الشريعة

(١١٩) كتاب التوحيد ص ١٠، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١ ـ ١٨٢.
(١٢٠) المصدر نفسه ص ٢٤ ـ ٢٥.
(١٢١) المصدر نفسه ص ٢٦.
(١٢٢) المصدر نفسه ص ٢٧.

http://kotob.has.it

عندهم أشياء ليس لها معنى وإذا حاولوا فهمها أصابتهم حيرة، وهذا مخالف للمقصود من النبوة، ولهذا: «ينبغي أن يكون ذكر النبيﷺ لهذا الأشياء ذكرا مجملا من غير تفصيل ظاهر، بل يجعل في كلامه من الرموز والإشارات ما يفهم الخواص منه تفصيل ذلك كله مع افتقار[١٢٣] العامة على ما يفهمونه من ظاهره» [١٢٤]، وهذا ما يذهب إليه ابن رشد، وكان ينعي على الغزالي أسلوبه الذي لا يراعي ذلك، وكذلك الفارابي وابن سينا وابن طفيل الذين يرون أن خطاب الشريعة للعامة قام على ضرب أمثال لتقريب المعاني في صورة حسية إلى عامة الناس، وأشار ابن طفيل إلى أن تلك الديانة السماوية التي عرفها حي بن يفظان من أهل الجزيرة المأهولة: «كانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المضروبة، التي تعطي خيالات تلك الأشياء وتثبت رسومها في النفوس، حسبما جرت به العادة في مخاطبة الجمهور[١٢٥] وكان قد رمز بأبسال بأنه كان أشد غوصا على الباطن وأكثر عثورا على المعاني الروحية، وأطمع في التأويل[١٢٦] وذلك حينما كان يتفقه مع سلامان في نصوص تلك الشريعة التي آمنا بها جميعا، وأما سلامان فرمز به إلى الأخذ بالظاهر: «فكان أكثر احتفاظا بالظاهر، وأشد بعدا عن التأويل، وأوقف عن التصرف والتأمل» [١٢٧]، كما أن نزعه أبسال نزعة توحدية انعزالية، ونزعة سلامان اجتماعية[١٢٨]، و «تطابق لدى أبسال المعقول والمنقول وقربت عليه

(١٢٣) كذا في الأصل ولعل القراءة السليمة: اقتصار.

(١٢٤) المصدر نفسه ص ٢٧ وهذه العبارة: الرموز والإشارات هي عبارة ابن سينا، انظر فتح الله خليف، فلاسفة الإسلام، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية (د. ت) ص ٦٢.

(١٢٥) حي بن يقظان ص ١٢٢.

(١٢٦) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(١٢٧) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(١٢٨) وكان ذلك بناء على أن تلك الشريعة تحتمل الأمرين.

http://kotob.has.it

طرق التأويل»، ولم يبق عليه مشكل في الشرع إلا تبين له، ولا مغلق إلا الفتح، ولا غامض إلا اتضح، وصار من أولى الألباب[١٢٩].

أما المعاد فيرى ابن النفيس أنه ينبغي للنبي أن يفصل القول فيه، وأن لا يجعله روحانيا، لأن أغلب الناس لا يدركون اللذات والآلام الروحانية ولا أن يجعله بدنيا فقط، لأن الناس تعلم أن البدن بلا نفس كالخشبة لا تشعر بشيء، ولذلك لا بد أن يجعل النبي المعاد مركبا من البدن والنفس معا[١٣٠]. فكأن النبي عنده يجب عليه ذلك لمجرد أنه ليس كل الناس تفهم المعاد الروحاني وحده، ومراعاة لمستواهم في الفهم، لا لأن الشريعة نفسها وردت كذلك، ولم يشر في هذا كله إلى رأي ابن سينا ولا إلى رأي غيره للرد عليه وهو موافق لابن سينا حيث قرر أن المعاد الجسماني «صح بالشرع ولم يخالفه العقل» [١٣١].

٤ ـ الأحكام الشرعية:

وعد ابن النفيس بأن يتكلم على الأحكام الشرعية النظرية والعملية وسماها التكاليف العلمية والتكاليف العملية، ولكنه لم يتكلم في الأحكام النظرية إلا عن صفات الخالق التي أشرنا إليها وعلى أن واجب النبي أن يبلغ الناس أن لهم صانعا تجب طاعته وعبادته، وأنه واحد سميع عليم قادر، ويخبر بالمعاد بالبدن والروح معا، وبخلود النفس، وما يترتب على ذلك من سعادة أو شقاوة.

---

(١٢٩) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(١٣٠) الرسالة الكاملية ص ٢٨.

(١٣١) إثبات النبوات ص ٩١ وأما السعادة الروحانية فيمكن عند ابن سينا البرهنة عليها بالعقل وحده، «والله تعالى أكرم عباده المتقين على لسان رسله عليهم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد بموعد الجمع بالسعادتين الروحانية ببقاء النفس، والجسمانية ببعث البدن الذي هو عليه قدير». ص ٩١. فكيف يدعي المدعي بأن ابن سينا أنكر المعاد الجسماني؟ انظر الرسالة، الأضحوية في أمر المعاد، ص ٥٩، والشفاء ج٣، النجاة ص ٢٩٠.

http://kotob.has.it

أما الأحكام العملية فتكلم فيها عن العبادات حينما بلغ عمر بطله ما يقرب من أربعين سنة [١٣٢] وبين أن حفظ الشريعة يتوقف على ذكرها باستمرار وأن ذلك يكون بتكرار العبادات ليتكرر [١٣٣] ويدوم ذكر الله وذكر رسوله، ويحصل الإنسان على رضا الله وثوابه، وبالزكاة التي تذكر الإنسان بأن إخراج المال إنما هو ابتغاء رضوان الله، وهذا الذكر لازم لغيره.

وأما الذكر الذي يدخل ضمن العبادة كالصلاة والحج فإنهما يشتملان على ذكر الله ورسوله بالضرورة، وأما الذكر المقصود بذاته، وليس متضمنا في أمر آخر، ولا لازما، فهو كالشهادتين، فالشرع لا بد أن يبني على خمسة أشياء [١٣٤].

فعل بدني محض، وهو كالصلاة، وترك بدني محض وهو كالصوم مثلا، ومالي محض كالزكاة ومجتمع منهما معا كالحج، وتختلف المشقة فيها، لذلك جاء تكرارها مختلفا كالصلاة التي تكرر يوميا، بخلاف غيرها، ولذلك جعل للصوم والزكاة مرة في العام، والحج مرة في العمر، ولذلك كانت الصلاة أكثر تذكارا لله تعالى ورسوله فكانت تنهي عن الفحشاء والمنكر [١٣٥] وأنت ترى أنه في وصفه للعبادة باعتبارها فعلا بدنيا محضا أو تركا بدنيا محضا، أو عبادة مالية خالصة، كل ذلك فيه نظر، وإنما هو قول فقهاء الظاهر الذي يصرفون النظر عن القلوب.

ثم تكلم على المعاملات التي اهتدى إليها «كامل» بفكره. وهو ما ينبغي للنبي أن يسنه، فكان العقل هنا يهتدي إلى التشريع وحده باستقلال عن

(١٣٢) الرسالة الكاملية ص ٣١.

(١٣٣) وهذا النوع من التكرار في العبادات لبقائها على الدوام أشار إليه ابن سينا، فتح الله خليف، المصدر السابق ص ٦٢ ٦٣ وإن كان ابن سينا أكثر تفصيلا.

(١٣٤) لم يأت بأي دليل على هذه الأركان الخمسة.

(١٣٥) المصدر نفسه ص ٣٢.

http://kotob.has.it

الشرع: «تفكر فيما ينبغي أن يسنه النبيﷺ من المعاملات فرأي...» [١٣٦] فيأتي العدل في مقدمة ما يسنه، لأن الاجتماع البشري لا يتم إلا إذا بني على العدل ولذلك «يجب أن يمنع النبيﷺ من كل جور» [١٣٧] وينهي عن أخذ الأموال بغير حق، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وأن يكون كل فرد نافعا للمجتمع بعمله، إلا أن يكون عاجزا أو مريضا وأن يمنع ما يؤدي إلى النفع دون اكتساب وعمل كالربا، وأن يبين لهم قانونا يمنع الإجحاف في البيع والإرث والإجارة والوقف أو العتق بالعدل، كما يبين لهم في الإرث بأن يكون نصيب الذكر مثل حظ الانثيين، لأن النساء عند الزواج تجب نفقتهن على الأزواج، بخلاف الذكور فإنهم إذا تزوجوا وجب إنفاقهم على أنفسهم وزوجاتهم، فحاجتهم إلى المال أشد من حاجة الإناث، وإن كان الرجال أقدر من النساء على الكسب، وهذا ما يعلل به الفقهاء عدم تساوي الذكور والإناث في الإرث إلى يومنا هذا.

ورأي أن الزواج ضروري لتكثير النسل البشري، فيجب على النبي أن يحث عليه، وأن يمنع اللواط والمساحقة ويحرمهما، وأن يكون الزواج معلنا ظاهرا عقده في غير ما سرية، ليثبت به النسب، والإرث، والنفقة، وذلك بالإشهاد عليه، وأن يمنع الزنا لإفساده الأنساب، وأن يسن تعدد الزوجات لا الأزواج، وأن يجعل للطلاق سبيلا إذا لم تطب عشرة الزوجين وأن يكون بيد الرجل، لتمام عقله ولإنفاقه وقد يكون للمراة أن تخالع زوجها، ولما كان النساء أقدر من الرجال في تدبير المنزل وجب عليهن الإقامة بالمنزل، ووجب على أزواجهن الإنفاق عليهن [١٣٨] ويجب على النبي أن يحرم ظهور النساء، وانكشافهن

(١٣٦) المصدر نفسه ص ٣٣.
(١٣٧) المصدر نفسه ص ٣٣.
(١٣٨) المصدر نفسه ص ٢٤.

http://kotob.has.it

للأجانب [١٣٩]، ويجب أن يحرم القتل والغصب والسرقة». وأن يسن عقوبات على من يرتكب هذه الجرائم، فيوجب: «القصاص، والدّية، وقطع اليد، ويسن حد الزنا، وعقوبة شارب الخمر كما يسن القتال والجزية، بالإضافة إلى الزكاة، وأن يجعل لها مصارف» [١٤٠]، وأوضح بعض المقاصد الشرعية من هذه الأحكام، مثل الحفاظ على النفس، والعقل، والمال، وذلك بمنع كل ما يؤدي إلى فساد في الأنفس أو في الأموال أو العقل، كالقتل والسرقة والغصب والسُكُر، وأن لهذه كلها عقوبة رادعة.

إن الذين يحفظون هذه الأحكام الشرعية هم علماء الأمة الذين يتلقون العلم لا بالوحي وإنما يستعملون الرأي والفكر [١٤١]، وبما أن طبائع الناس مختلفة، فهذا يؤدي إلى تعدد الآراء في الدين، وإلى تفنن في الأقوال والمذاهب، وبما أن الناس يحبون الرئاسة فمن الضروري في نظره أن ينقسم الناس إلى مذاهب وطوائف مختلفة في الأصول وفي الفروع، وتقع بينهم العداوة والتنازع، وأن تكثر المصنفات في هذه المذاهب، وأن تتأسس المدارس للمشتغلين بهذه المذاهب. وتخصص لها أموال تصرف على علمائها وطلابها.

ولابد ـ كما يقول ـ أن تحفظ هذه الشريعة الخاتمة بحفظ السنة والكتاب، ومعرفة معانيهما، ولذلك تدعو الحاجة إلى تعرف علم التفسير وعلم الحديث، وغيرهما من العلوم الشرعية. فهو بهذه المقدمات الواقعية ونتائجها يصور لنا الواقع التشريعي الإسلامي، ولكن بموجب عقلي، تصور من خلاله ماذا يجب على صاحب الشرع بأن يسنه من الأحكام التي تقيم المجتمع على أساس سليم فكان تصوره لشريعة عقلية مطابقا للشريعة النبوية. ليبين

(١٣٩) المصدر نفسه ص ٣٩.
(١٤٠) المصدر نفسه ص ٣٩.
(١٤١) المصدر نفسه ص ٣٨.

http://kotob.has.it

أن الشرع لا يخالف العقل، فيما يجب سنه للحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، مما يقتضيه الاجتماع البشري، وأنت ترى انه ليس لابن النفيس هنا أي إبداع سوى وضع ما هو معروف من قبله في صورة مقدمات ونتائج تلزم عنها، وفي صورة علل ومعلومات يترتب بعضها من بعض ترتبا عقليا في صورته، وشرعيا في مضمونه، ومعنى هذا أنه عرض لنا الأحكام عرضا منطقيا فكريا يتفق فيه نظر العقل (عقل كامل) مع حقائق الشرع، ولعل هذا هو المقصد من كلامه في هذا الموضوع بهذه الطريقة العقلية الصورية، ولم يخرج في ذلك غالبا عن مفاهيم الشريعة وهديها [١٤٢].

ولم يقم كما فعل ابن رشد [١٤٣] بربط الأحكام بالفضائل الخلقية المقصودة من الأحكام، بل اقتصر تقريبا على الناحية الفقهية الظاهرة، وعلى ما يلزم من الردع لمن خالف هذه الأحكام، بخلاف عمل أبي حامد الغزالي في «الإحياء» الذي عنى عناية واضحة بربط الأحكام بالأعمال القلبية، وبرأسها وهو التقوى، وهو الذي يقصده بحياة العلم، التي أهملها فقهاء الظاهر في عصره، فمات هذا اللون من الفقه القلبي، وبقي الفقه الشكلي.

٥ ـ النفس الإنسانية:

يرى ابن النفيس أن الإنسان مركب من بدن ونفس، فالبدن هو هذا الشيء المحسوس، وأما النفس فهي التي يشير الإنسان إليها بقوله «أنا» [١٥٣] ويذهب

(١٤٢) قلعه جي ص ٣٩.
(١٤٣) في خاتمة كتابه بداية المحتهد وكفاية المقتصد.
(١٥٣) الرسالة الكاملية ص ٢٨ قال ابن سينا: فإذن الإنسان الذي يشير إلى نفسه «بأنا» مغاير لجملة أجزاء البدن فهو شيء وراء البدن «رسالة معرفة النفس الناطقة وأحوالها،=

http://kotob.has.it

في النفس مذهب أفلاطون في أنها جوهر مجرد، لا مذهب أرسطو، فالبدن «جسيم محسوس» أما النفس فهي مجردة عن المادة، والمشار إليه «بأنا» هو النفس وهي ثابتة، أما البدن فيتغير، فبدن الإنسان وهو طفل غيره وهو شيخ، لأن البدن يتحلل باستمرار ويتجدد، ونجد الإنسان يغفل أحيانا عن بدنه، ولكنه لا يغفل عن نفسه، وهذا دليل ابن سينا في كون النفس جوهرا مفارقا للبدن، ومستقلا عنه في وجوده ، لثباته دائما، وتغير البدن، ويذكرنا هذا بابن سينا في دليله على وجود النفس، ومفارقتها للبدن ومغايرتها له، وهو الدليل المشهور بدليل الرجل المعلق، الذي يكون أول ما يوجد ـ كما يتخيله ـ معلقا في الفضاء، وأنه لا يمكن أن يغفل عن وجود نفسه أبدا، وأن غفل عن جسمه وأعضائه [١٥٤]، ويوجد هذا الدليل على هذا النحو تقريبا عند (ديكارت) في استدلاله على وجود نفسه. كما في التأملات [١٥٥]. وكذلك يذهب ابن سينا إلى أن النفس جوهر مفارق، وإن قال في مواضع أخرى برأي أرسطو أيضا.

فابن النفيس أخذ برأي ابن سينا في كون النفس لا يغفل عنها الإنسان، وإن غفل عن بدنه، واصطلاح الغفلة نفسه اصطلاح سينوي بحرفيته ، وكذلك تحلل الجسم وتعويض تحلله بالغذاء وكونه يتبدل هو رأي ابن سينا أشار إليه

= تحقيق ثابت الفندي، القاهرة (د. ت) ص ٩ ـ ١٠. الشفاء النفس تحقيق فضل الرحمان، أكسفورد، ١٩٥٩م، ص ٢٥٦، و «الأنا» هذه هي التي يطلق علها عليها النفس «الشخصية» كما هي عند وليم جيمس وبرسجون، إبراهيم مدكور، الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٧٢ وما بعدها.

(١٥٤) يقر ابن سينا: «وجدتها» النفس «قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيّتها» الإشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٥٧ القسم الثاني ص ٣١٩.

(١٥٥) انظر النص الذي ترجمه إبراهيم مدكور، المرجع السابق ص ١٩٠ ـ ١٩١.

http://kotob.has.it

في عدة من رسائله ومصنفاته [١٥٦]، وليست النفس عند ابن النفيس جسما ولا جسمانية، لأنها لو كانت لأدى إلى أن ما يحل فيها يتصف بالشكل والانقسام مثل العلوم والإدراكات المختلفة التي تحل في النفس، وليست المعارف ذات شكل ولا وضع، وليست مكانية فتقبل القسمة، وإذا كانت مجردة عن المواد الجسمانية فهي لا توجد قبل وجود المادة المتزجة التي يتكون جسم الإنسان منها: «لأنها لو وجدت قبل هذه المادة لم يمكن أن تكون واحدة ولا كثيرة فلا يكون وجودها إذن ممكنا، أما أنها لا يمكن أن تكون حينئذ كثيرة فلأن جميع الأنواع إنما تتكثر أفرادها لأجل المادة التي تتعلق بها. فلذلك تكون قبل حدوث هذه المادة غير متكثرة، وأما أنها لا يمكن أن تكون واحدة، فلأنها لو كانت واحدة لكانت الأبدان المتعلقة بها مع تكثرها ذوات نفس واحدة بالشخص، فما يحصل لكل واحد من العلوم يحصل للكل هذا مجال، فإذن نفس الإنسان إنما يمكن وجودها بعد وجود المادة المتزجة مزاجا إنسانيا، فوجود هذه المادة شرط في وجود نفس الإنسان، وهذه المادة تحدث من المني ونحوه، وإذا تعلقت بها النفس ثم أخذت في الاغتذاء وتخليق الآلات حدث من ذلك البدن وهذه المادة تسمى. «عجب الذنب» [١٥٧]، فهو يرى هنا أن النفس ملازمة للمادة، ومحال أن تفقد ما دامت النفس موجودة، وإلا كانت النفس مستغنية عنها «عن المادة» في وجودها، فلا يكون وجود النفس متوقفا عليها،

(١٥٦) رسالة في معرفة النفس ص ٩.

(١٥٧) الشفاء «النفس» تحقيق قنواتي، وسعيد زايد، القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ١٩٨، المصدر نفسه ص ٢٩ ـ ٣٠.

http://kotob.has.it

هذا خلف، فإذن يستحيل فقدان هذه المادة مع وجود نفس الإنسان [١٥٨]، فهو بهذا يعتقد أن النفس مجردة وغير مادية، ولكنها لا توجد قبل وجود المادة، وأن المادة شرط في وجودها سواء كانت هذه المادة هي المني أو غيره، ثم عاد فعين المادة وأنها هي التي تسمى «عجب الذنب» ومنها يحدث البدن، كما يرى أن هذه المادة ـ وهي عجب الذنب ـ لا يمكن أن تفنى، كما أن النفس لا تفني فهي خالدة، لأن الذي يقبل العدم هو المادة، والنفس ليست مادة فهي إذن لا تقبل الانحلال لبساطتها، وأما المادة فهي التي تقبل الفساد والانحلال لأنها مركبة كما يرى أفلاطون وابن سينا، ولكن كيف يستثنى عجب الذنب وهو مادي من العدم، والمادة فانية منعدمة في تصوره؟ لم يأت بدليل عقلي على ذلك، وقد وصف عجب الذنب بأنه جزء صغير جدا تتعلق به النفس [١٥٩] أيضا عند المعاد وتغذيه من طين امتزج به ماء وحرارة، وتتكون مادة لطيفة جدا به يكمل البدن ويبعث [١٦٠] ولكن ابن النفيس يقرر بأن: «هذه المادة التي هي عجب الذنب لا يمكن عدمها فلذلك هي تبقي بعد موت البدن وبلاه» [١٦١] وبعد مفارقة البدن تبقى النفس «مدركة عالمة» [١٦٢] وتشعر باللذة والألم في القبر، فالعلاقة بين النفس والمادة في نظره علاقة وحدة. فالإنسان وحدة بين النفس والبدن: «بمعنى وحدة هذه المادة فيه البدن مع وحدة هذه

(١٥٨) المصدر نفسه ص ٣٠.
(١٥٩) المصدر نفسه ص ٥٣.
(١٦٠) المصدر نفسه ص ٥٣.
(١٦١) المصدر نفسه ص ٣٠ في الأصل: بلائه.
(١٦٢) المصدر نفسه ص ٣٠

http://kotob.has.it

النفس»[١٦٣] ولكن إذا كانت النفس عالمة ومدركة بدون البدن فهي مستقلة في وجودها ومستغنية عن البدن، فكيف تتصور هذه الوحدة؟ هل هي وحدة مؤلفة ما دامت النفس مع البدن؟ ويبقي إشكال عدم فناء هذه المادة قائما لا دليل عليه فلسفيا، لأن عجب الذنب جزء من المادة، والمادة مركبة وتنحل فلماذا يذهب إلى بقاء جزء واحد من المادة ولا ينطبق ذلك على المادة كلها فتكون باقية أيضا» [١٦٤]؟

وعندما تكلم عن عظم العصعص الذي هو «عجب الذنب» لم يشرحه، وبين أنه واضح غنى عن الشرح [١٦٥].

وذهب ابن طفيل أيضا في قصته إلى «أن الفناء والانحلال إنما هو من صفات الأجسام» [١٦٦]، «وأما الشيء الذي ليس بجسم ولا يحتاج في قوامه إلى جسم» ..... «فلا يتصور فساده البتة» [١٦٧]، ولهذا فإن الذات الشريفة «النفس» لا يمكن فسادها، لأنها ليست جسما ولا منطبعة في جسم، وبها يعرف واجب الوجود، فهي شيء رباني إلهي لا يلحقه الفساد [١٦٨].

وتبقى علاقة النفس بالبدن مشكلة فلسفية لم تحل إلى اليوم، وإن تخيل المتأملون علاقات ليس عليها برهان سوى تصورات، فيها خيال أكثر مما فيها من حقيقة، كتصور السهروردي أن العلاقة بينهما «شوقية» كعلاقة المغناطيس بالحديد [١٦٩].

---

(١٦٣) المصدر نفسه ص ٣٠

(١٦٤) لعله اعتمد على الحديث الوارد في «عجب الذنب» من أنه لا يبل ولكنه لم يشر إليه باعتباره نصا منقولا، وإنما فكر فيه تفكيرا عقليا تأمليا.

(١٦٥) شرح تشريح القانون ص ١٠٧.

(١٦٦) حي بن يقظان ص ١٠٠.

(١٦٧) المصدر نفسه ص ١٠٠.

(١٦٨) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(١٦٩) اللمحات ص ١٢٠.

http://kotob.has.it

وقد تكلم ابن النفيس عن النفس وتعلقها بالمادة أي بالبدن تعلق تغذية مما ينشئ البدن ابتداء من «عجب الذنب» الذي يوحد بينه وبين المادة، وبقي هذا الشرط المادي في وجود النفس غير واضح لقوله ببقاء أو خلود هذه المادة الخاصة.

وأشار ابن النفيس في كتبه الطبية إلى وظائف النفس، كالتفكر والتذكر والخيال وعلاقة ذلك كله بالدماغ، والأعصاب والأرواح: الطبيعية والحيوانية والنفسانية، ويقصد بالروح هنا المعنى الذي اصطلح عليه الأطباء القدماء، وهو عبارة عن جرم لطيف حادث عن لطافة الأخلاط، وهو حامل القوى ينبعث من التجويف الأيسر للقلب، ويسمى روحا حيوانيا، وإذا صار صاعدا إلى الدماغ يسمى روحا نفسانيا، وإذا صار إلى الكبد يسمى طبيعيا [١٧٠]. فالروح الحيواني يتكون من بخار «هواء + دم» [١٧١] ويعبر عنه ابن طفيل وهو طبيب بأنه «هواء بخاري يشبه الضباب الأبيض» [١٧٢] وهذا البخار الحار يسمى بالحرارة الغريزية أيضا، وهو الذي يحرك الحيوان، ولا تتم أفعال الحس والحركة إلا بما يصل إلى الأعصاب وينتقل فيها من هذا الروح [١٧٣].

ويذكر ابن النفيس أن الأعصاب هي التي تفيد «الحس والحركة، والدماغ مبدأ لقوة الحس والحركة» [١٧٤]، ويذكر اختلاف الأطباء في هذا مع

(١٧٠) السهروردي، اللمحات ص ١١٦ ١١٧ «وكلما كان رقيقا كان الجوهر الهواء» «شرح تشريح القانون» ص ٣٣١.

(١٧١) ما يرهوف، المصدر السابق ص ٤٠ ويكون الروح لطيف القوام إذا غلب عليه الجوهر الهوائي، شرح التشريح ص ٣٣٩ .

(١٧٢) ابن طفيل، حي بن يقظان، ص ٨٠.

(١٧٣) المصدر نفسه ص ٨٠ ـ ٨١، ٨٣.

(١٧٤) شرح تشريح القانون ص ٢٦١.

http://kotob.has.it

الفلاسفة، فمذهب الأطباء «أن الدماغ هو مركز هذه الأعصاب بذاته، أما الكثرة من الفلاسفة» وهم أرسطو وأتباعه فيرون أن ذلك يكون بواسطة القلب، والقلب هو الذي يولد الروح الحيواني عند ابن النفيس [١٧٥] تبعا لأرسطو.

ويتفق أفلاطون مع جالينوس على أن الدماغ هو مبدأ ذلك، ويرى ابن النفيس أن الآلات التي تقوم بهذا هي الأعصاب «فالمقصود بالذات من خلقة الأعصاب أن تكون آلة لنفوذ هذه القوى من الدماغ إلى الأعضاء المستفيدة منه أفعالها» [١٧٦]، ويصف انتقال الروح في الأعصاب بالسرعة الفائقة: «في زمان لا تحس قدره [١٧٧] وهذا الروح الحيواني يعدله الدماغ أي يعدل حرارته حتى يصير صالحا لصدور الأفعال النفسانية عنه» [١٧٨]، ويصف «الروح المفكر» بأن الإنسان إذا أراد التفكير في شيء «تحرك ذلك الروح إلى التفتيش في المخزون في الخيال وفي الحافظة ليقع بسرعة على الأمر الذي يتوصل به إلى المطلوب» [١٧٩].

ويقصد ابن النفيس بالدماغ المخ [١٨٠]، ويخالف الأطباء في دعواهم أن المخ به تجاويف «أفضية» في داخله وأنها ثلاثة، وأنها مملوءة بالأرواح

(١٧٥) شرح تشريح القانون ص ٣٣٨، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩.
(١٧٦) المصدر نفسه ص ٢٦١.
(١٧٧) المصدر نفسه ص ٣٣٩.
(١٧٨) المصدر نفسه ص ٣٣٩
(١٧٩) المصدر نفسه ص ٣٣٩.
(١٨٠) المصدر نفسه ص ٣٣٦ ويرى أنه «المعنى المشهور».

http://kotob.has.it

النفسانية وهي الأرواح التي بها قوى الحس أي الحس المشترك [١٨١] وقوى الخيال، وقوى الوهم، وقوى المفكرة، والمتخيلة، والحافظة، والذاكرة. يقول ابن النفيس: «وأنا إلى الآن لم يتحقق لي شيء من ذلك على الوجه الذي ارتضيه، وقولهم إنهم شرحوا وأبصروا الأمر على ما ذكروه، مما لا يوقع عندي ظنا عن جزم، فكثيرا ما رأيت الأمر على خلاف ما ادعوا أنهم صادفوه بالتشريح الذي يدعون أنه تكرر لهم كثيرا» [١٨٢].

ويذهب إلى أن الإنسان بما أنه في حاجة إلى قوة الفكر والذكر، فإنه يحتاج إلى أرواح كثيرة، وإلى مكان متسع لهذه الأرواح في المخ بخلاف بقية الحيوان، كما أن جودة الفكر تتوقف على صفاء أرواح دماغ الإنسان، وذلك إذا لم تختلط بها أبخرة كثيرة، ويحتاج الإنسان إلى أعصاب كثيرة وقوية، وهذا يتطلب أن يكون الدماغ كبيرا، ونخاعه كبيرا وقويا أيضا [١٨٣]، والبطن المقدم من الدماغ عنده هو محل الصور المحسوسة بالحواس الظاهرة، كالمبصرات من الأشياء الخارجية، ولذلك فإن الجزء من المخ يحتاج في نظره إلى مساحة، فلذلك: «يجب أن يكون هذا البطن عظيما جدا حتى يمكن أن يتسع لمثل كثرة الأمور الخارجية [١٨٤] كأن الدماغ عنده أسطوانة أو قرص يجب أن يتسع

(١٨١) المصدر نفسه ص ٣٣٧ .

(١٨٢) المصدر نفسه ص ٣٣٧ وهذا يشير إلى أنه يشاهد التشريح ويتابعه وإن لم يقم به هو شخصيا كما يدعي من أن الشريعة تمنعه وأن ذي ذاته رحمة لا تسمح له بذلك. يقول: وهيئة التشريح تصدق ذلك وتكذب قولهم ص ٣٤٩ عند كلامه على تشريح الرأس أو بطون الدماغ، «والمشهور غير هذا، وهيئة التشريح تصدق ما قلنا» ص ٣٠٢ ٢٩٥.

(١٨٣) المصدر نفسه ص ٣٣٤.

(١٨٤) المصدر نفسه ص ٣٤١.

http://kotob.has.it

للتخزين للصور المحسوسة، في المقدم منه: لأن مقدم الدماغ للحس، ومؤخره لحفظ المعاني، والمحسوس إنما ينتقش في شيء له مساحة، ولا كذلك المعاني [١٨٥].

كما أن البطن المؤخر من المخ محل عنده لمعاني الصور المحسوسة، ولكن هذه المعاني لا مساحة لها، فلا تحتاج إلى مكان واسع، لأنها معاني ليس فيها من المحسوس شيء، فلا تحتاج إلى مكان واسع، لأنها معاني ليس فيها من المحسوس شيء، «فلا يضر فيها صغر المكان» [١٨٦] ولذلك كان هذا البطن المؤخر صغير جدا بالقياس إلى المقدم، وأما البطن الوسط من الدماغ فإنه حسب رأيه كالدهليز يشرف على الصور التي في البطن المقدم ويحكم على كل صورة تلك الصور بما يليق بها من المعاني ولذلك تحكم هذه القوة من الشاة على صورة الذئب المنطبعة في البطن المقدم على أن ذلك عدو مفسد لها، وعلى صورة متعهدها بالعلف أنه صديق لها فلا تنفر منه نفورها من الذئب [١٨٧] وكأنه يرى لحجم المخ أثرا في قوة الفكرة والذاكرة : «إذا قيس رأس الإنسان إلى بدنه كانت نسبته إليه أعظم من نسبة رؤوس باقي الحيوانات إلى أبدانها، ويشبه أن يكون ذلك لحاجته إلى روح أكثر، بسبب القوة المفكرة والذاكرة اللتين ليستا لغيره [١٨٨]، ويمكن للدارس أن يدرس الإدراك الحسي كالإبصار مثلا عند ابن النفيس ويرى ما يتفرد به عند نقده للقدماء». في أشباح المرئيات في الرؤية وفي رأيه في طبقات العين [١٨٩] وما إلى ذلك من الوظائف النفسية والفسيولوجية المتصلة بها.

---

(١٨٥) المصدر نفسه ص ٥٨.
(١٨٦) المصدر نفسه ص ٣٤٢.
(١٨٧) المصدر نفسه ص ٣٥٢.
(١٨٨) رسالة الأعضاء ص ١٦١ ـ ١٦٢ وبالفراسة يتفرس أن الرأس إذا كان كثير اللحم كان صاحبه بليدا وصاحب هذيان.
(١٨٩) شرح تشريح القانون ص ٣٥٧، ٣٦٠ ـ ٣٦٢ ، ٣٦٥.

http://kotob.has.it

٦ ـ المادة أو الطبيعة:

بعد أن أشرنا إلى تصورات ابن النفيس عن النفس وعلاقتها بالمادة، نشير الآن إلى تصوره للمادة نفسها، فهو يرى أن مادة أجسام هذا العالم جميعها واحدة، وإنما اختلافها باختلاف «صورها» وأن جميع الأجسام في هذا العالم تتفاعل إذا تلاقت، وذلك بأن يفعل كل واحد منها في مادة الآخر فعلا، يقرب تلك المادة إلى مشابهة جوهره ، ولذلك إذا تلاقت العناصر تفاعلت ولزم ذلك حصول المزاج [١٩٠] وتجعل الصورة المادة شديدة الملاءمة لها، كصورة الماء التي تجعل مادته باردة رطبة، وهي المناسبة لصورة الماء لا تفارقه إلا بتفاعل مع مادة أخرى كالنار، فيستحيل إلى صورة هوائية قسرا، ويستحيل الماء هواء، والأجسام بمختلف صورها: كل منها يفعل في غيره هذا الفعل، ويختلف التأثير قوة وضعفا سهولة وعسرا، فإن استحالة الأجسام رصاصا أسرع كثيرا وأسهل من استحالتها ذهبا، وذلك لأن الذهب إنما يتحقق بمزاج شديد، وذلك مما يعسر تكييف الأجسام بمزاجه، ولا كذلك الرصاص (...) وكذلك يقال إن الأكسير يحيل الرصاص فضة أو النحاس ذهبا [١٩١]، فهذا التفاعل الكيميائي ظاهرة مادية، وكذلك عملية التمثيل في الهضم فإن المعدة تحيل الغذاء المتحول إلى صورتها [١٩٢] وكذلك الغذاء في الكبد يتحول إلى صورتها، وتعده لأن يتحول إلى طبيعة الأعضاء المختلفة: «فهذه فائدة الكبد فإنه إذا أحالت الغذاء دما استعد بذلك» إلى «الاستحالة إلى جوهر كل عضو» [١٩٣]،

---

(١٩٠) المصدر نفسه ص ٤٠٨.
(١٩١) المصدر نفسه ص ٤٠٩ وهذا هو المشهور بحجر الفلاسفة في الكيمياء القديمة .
(١٩٢) المصدر نفسه ص ٤٠٩.
(١٩٣) يقصد بالاستحالة التغير، المصدر نفسه ص ٤٠٩.

http://kotob.has.it

ويرى أن «المادة بذاتها قابلة لجميع الصور» [١٩٤] فتحصل لها صورة معينة دون غيرها، لما للمادة من كيفيات تجعلها مناسبة لصورة دون أخرى: «والله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقا فلذلك يعطي كل مادة ما تستعد له من الصور والنفوس» [١٩٥] وضرب لذلك بمادة المني: «فلذلك إذا اجتمع المنيّان في الرحم، واختلطا، وحصل من اختلاطهما مزاج إنساني استعد ذلك الممتزج من المنيين لقبول صورة الإنسان، والتعلق بنفس إنسانية، وحصل له [١٩٦] ذلك من الله تعالى[١٩٧] ويستخرج نتيجة عامة من ذلك وهي أن جميع الأجسام التي في هذا العالم المختلفة الطبائع يحدث لها لا محالة تفاعل يؤدي إلى كيفية متوسطة بين تلك الطبائع المختلفة، وتلك الكيفية تسمى مزاجا، فلذلك لابد من حدوث هذا المزاج عند اختلاط المنيين فيكون هذا المزاج قريبا جدا من الاعتدال (...) فلذلك يستعد الركب حينئذ منهما لحصول صورة إنسانية، وللتعلق بنفس إنسانية، وإنما تنتفع النفس بذلك إذا صار بدنا» [١٩٨].

أما ابن طفيل فيرى أن الأجسام كلها إنما تعود إلى جوهر رئيس هو الامتداد[١٩٩]، وهو ما تشترك فيه جميع الأجسام، وهذه هي فكرة (ديكارت) من بعده فإن جميع الأجسام عنده متناهية [٢٠٠] وهي فكرة أرسطية.

---

(١٩٤) المصدر نفسه ص ٤٤٢، ويفسر ابن سينا قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ بأن التسوية هي جعل البدن بالمزاج الإنسي متسعدا لأن تتعلق به النفس «رسالة في معرفة النفس ص ٩، واخترت قراءة نسخة (ن) ص ٤٤٢.

(١٩٥) المصدر نفسه ص ٤٤٢، ويشير بهذا إلى نظرية الفيض التي تقوم على ان الله يفيض بجوده على الموجودات تبعا لاستقبال وقبول المعرفة والنور والوجود.

(١٩٦) في الأصل حصل له من ذلك من الله تعالى.

(١٩٧) المصدر نفسه ص ٤٤٢.

(١٩٨) المصدر نفسه ص ٤٤٣.

(١٩٩) ابن طفيل، حي بن يفظان ص ٨٧، ٨٨، ٩٠ وهذا ما نجده عند ديكارت.

(٢٠٠) المصدر نفسه ص ٩٣.

http://kotob.has.it

٧ ـ التولد الذاتي:

أشار أرسطو إلى التولد الذاتي في كتاب «نشوء الحيوان» وبقي هذا التولد الطبيعي التلقائي في الفلسفة إلى القرن التاسع عشر الميلادي حين أبطله (باستور)، وتأثر ابن النفيس في هذا بجالنيوس وأبقراط وأرسطو [٢٠١] كما تابع ابن طفيل في قصته في التولد الذاتي لبطله «كامل» إلا أن ابن طفيل احتاط للأمر، فذكر الرواية الأخرى التي تذكر أنه ولد من أب وأم، ولذلك تكلم على علم الفلك والشمس والقمر والحرارة التي تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بذلك المكان من غير أب ولا أم، فهو ولد من طينة متخمرة أي من رطوبة وحرارة في إحدى الجزر الهندية كما يقص ابن سينا، وهي تقع تحت الخط الاستوائي وهي جزيرة سيلان (سريلانكا) لأنها أعدل بقاع الأرض هواء وحرارة، أو لأنها ـ في رواية أخرى جزيرة واقواق تبعا للمسعودي، أو جزيرة السعادات في المحيط الأطلسي، وهذا مخالف لما يراه جمهور الأطباء والفلاسفة من أن الإقليم المعتدل إنما هو الإقليم الرابع أي الأندلس أو البحر الأبيض، كما يذهب إلى ذلك ابن رشد مثل. هذه الطينة التي اعتدل المزاج فيها اعتدالا أشبه بمزاج الإنسان، وخاصة في وسطها فيتعلق بذلك المزاج «الروح الذي هو من أمر الله» [٢٠٢].

واستعمل ابن النفيس في هذه العلاقة بين المادة والنفس عبارة ابن طفيل «تعلق» نفسها كما أن ابن طفيل استعمل «أمر الله» اقتباسا من القرآن الذي وصف الروح بأنها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢٠٣] ووصف ابن النفيس تكوّن «كامل» في المغارة بأن ما دخل إليها من ماء وطين سخن وتعفن

(٢٠١) ما يرهوف المصدر السابق ص ٤٠، وسلمان قطاية، المصدر السابق ص ١٠٧.
(٢٠٢) حي بن يفظان ص ٦٩.
(٢٠٣) الإسراء / ٨٥.

http://kotob.has.it

وتخثر وامتزج وصار له مزاج قابل لتتكون منه الأعضاء المختلفة، لاختلاف طبائع التراب في ذلك المزاج، مما يشبه أمزجة جميع الأعضاء:

«والله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقا مستحقه [٢٠٤]، ويعطي كل مستعد ما يستعد له فلذلك خلق من تلك الأجزاء أعضاء إنسان ومن جملتها بدن الإنسان» [٢٠٥] ويختلف عند ه تكون هذا الإنسان عن تكوّن الإنسان في الرحم، بأنه يشبه تكونه تكون الفرخ في البيضة، إذ المغارة بمنزلة قشر البيضة، وما في داخلها من المادة بمنزلة مح البيضة وبياضها[٢٠٦] وأنه عظيم البدن جدا، ولا يخرج من المغارة إلا وهو صبي مترعرع، لتوفر المادة التي يغتذي منها في المغارة، فأصبح مدركا متحركا يزحف للخروج من المغارة، ولما خرج أخذت كل حواسه تؤدي وظائفها، وأخذ يتعرف العالم الخارجي واشتغل بتشريح الحيوانات، وصوّر ابن النفيس تطوره على النحو الذي كان عند ابن طفيل فتطورت تأملاته من الحيوانات إلى النبات إلى الأجرام السماوية، إلى أن اهتدى إلى وجود الله تعالى [٢٠٧].

وانتقل من التوحش إلى الحضارة، كما نجد هذا عند إخوان الصفا وابن طفيل أيضا عندما التقى بالمتحضرين، وقد فصل القول في كتبه الطبية في التولد في الرحم، وبما أن الإنسان الفرد أو ما سماه:

«الشخص الإنساني» لا يمكن بقاؤه في هذا العالم، كما لا يمكن «تكون مثله بالتولد في كل وقت كما تتولد كثير من الحشائش، وجب ضرورة أن يحفظ نوعه بالتناسل، فيجب أن يكون له عضو تتولد فيه مادة، تصلح لأن

(٢٠٤) هذه العبارة وردت أيضا في شرح تشريح القانون ص ٤٣٣، ٤٤٢، ٤٤٣، كما استعمل ابن سينا لفظة (التعلق)، قبل ابن طفيل وابن النفيس.

(٢٠٥) الرسالة الكاملية ص ٤ ـ ٥.

(٢٠٦) المصدر نفسه ص ٥.

(٢٠٧) المصدر نفسه ص ٦ ـ ٨.

http://kotob.has.it

يتولد منها شخص آخر، ليبقي النوع محفوظا يتعاقب الأشخاص، وتلك المادة هي المني، وذلك العضو هو الإنثيان» [٢٠٨] كما يذكر أن وجود الإنسان بالتولد على النحو الذي ذكره في قصته نادر جدا [٢٠٩] وهذه المادة لابد أن تكون مختلفة الأجزاء، مختلفة المزاج، باختلاف أمزجة الأعضاء التناسلية، وهذه المادة إما أن تكون منفصلة من بدن آخر، فيتكون الإنسان بالتوالد العادي (الرحمي) وإما أن لا يكون كذلك، فيتكون الإنسان كتكون آدم، فإن تكونه من طين مختلفة الأجزاء في المزاج والقوام، ويكون كل جزء من تلك الطينة مستعدا ليتكون منه العضو المناسب له، عظما كان أو عصبا أو رباطا، وما إلى ذلك بحسب مزاجه وقوامه، لأن الله تعالى كما مر «لا يمنع مستحقا من مستحقه فيعطي كل واحد من تلك الأجزاء ما يستعد له من صورة الأعضاء، فيكون حينئذ بدن آدم عليه السلام» [٢١٠]. وأما النوع الثاني، وهو التكون بالتوالد فهو قد يكون في البيض، وقد يكون داخل البدن، والمادة التي يتولد عنها في داخل البدن تسمى المنى [٢١١]، ولا يوافق ابن النفيس الفلاسفة والأطباء الذين يرون أن المني تعطي له «قوة مولدة ومصورة» [٢١٢] ويرفض أن يكون في المني أي قوة من هذه القوى، التي ذكرها ابن سينا، سواء كانت مصورة وهي التي تعطيها الانثيان، أو كانت «قوة مولدة أو غاذية»، لأن ذلك في نظره من «قوى النفس الحادثة وهي المتعلقة بذلك المني ليتكون منه الشخص الحادث، وليس في المني عندنا روح نفساني وطبيعي وحيواني بل هو رطوبات اجتمعت» [٢١٣].

(٢٠٨) رسالة الأعضاء ص ١٠٠.
(٢٠٩) الرسالة الكاملية ص ٣٤.
(٢١٠) شرح تشريح القانون ص ٤٣٣.
(٢١١) المصدر نفسه ص ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٨.
(٢١٢) المصدر نفسه ص ٤٣٤.
(٢١٣) المصدر نفسه ص ٤٤٦ لم يعرف في عهده الحيوان المنوي والبويضة.

http://kotob.has.it

ويستعمل في شرح الأعضاء في التشريح الأشكال الهندسية في بيان حجمها وأشكاله كشكل الرأس مثلا [٢١٤] وأشكال عظامه، باستعمل المثلث [٢١٥]، والشكل الأسطواني [٢١٦] وأشكالا أخرى متعددة [٢١٧] لتصوير أشكال عدة أعضاء وعظام لتقريبها للمتعلمين [٢١٨].

٨ ـ نقده للأطباء:

مذهب ابن النفيس مذهب أرسطي: في اعتبار القلب العضو الرئيس في البدن، وأنه أشرف من الدماغ [٢١٩] ولكن في الواقع له عقل مستقل، ولا يقلد القدماء في كل ما قالوه. فقد نقد أبقراط في فهمه «للنقطة الحمراء في المني» [٢٢٠] ونقد أرسطو نفسه في كون الرأس يكون أحيانا مكونا من عظم واحد[٢٢١] ونقد جالينوس كثيرا في أسنان العقل وغير ذلك [٢٢٢] كما نقده مع ابن سينا في أعصاب الإبصار [٢٢٣] وإن كان ينتصر له أحيانا، ويرى الحق معه [٢٢٤]، وأكثر من نقد ابن سينا في شرح التشريح [٢٢٥]، فتارة يقول: «هذا لا يصح»، وتارة: «وقد أبطلنا ذلك، وهذا لا يصح» أو «غير مسلم» [٢٢٦] وفي كلامه عن

(٢١٤) المصدر نفسه ص ٥٧.
(٢١٥) المصدر نفسه ص ١٩٢.
(٢١٦) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٢١٧) المصدر نفسه ص ٦١، ٧٧، ١٣٤، ١٨١، ١٨٢، ٢٠٧.
(٢١٨) عندما شرح شكل الرأس قال : «والذي يقربه إلى الذهن» وذكر الشكل، شرح تشريح القانون ص ٥٧.
(٢١٩) شرح تشريح القانون ص ١١٠.
(٢٢٠) المصدر نفسه ص ٤٤٨.
(٢٢١) المصدر نفسه ص ٥٤ ـ ٣٣٥.
(٢٢٢) المصدر نفسه ص ٩٢ ـ ٣٢.
(٢٢٣) المصدر نفسه ص ٢٦٧.
(٢٢٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٢٢٥) المصدر نفسه ص ٩٥ ـ ٤١١.
(٢٢٦) المصدر نفسه ص ٣٤٩، ٣٥٩، ٢٦٩.

http://kotob.has.it

«العضد» [٢٢٧] وفي الغداء الواصل إلى الجنين [٢٢٨] وفي الأوردة: «وهذا شيء قد أبطلناه وبينا فساده» [٢٢٩] فهي لا تنبت من الكبد كما يرى ابن سينا، كما انتقد ابن سينا أيضا في أسلوبه وعباراته: «ولا شك أن ذلك مستقبح في التصنيف» [٢٣٠] أو يقول - إن «عبارته رديئة» [٢٣١] «وعبارة الكتاب ليست بجيدة» [٢٣٢]، كما ينقد النصوص لما فيها من أخطاء النساخ [٢٣٣] وأحيانا يصرح بأنه لم يفهم مقصود ابن سينا [٢٣٤] وأحيانا ينكر وجود ما يصفه الأطباء: «هذا ما قالوه وأما أنا فيظهر لي والله أعلم أن هذه العظام لا وجود لها» [٢٣٥]، ويميز بين مهذب الفلاسفة ومذهب الأطباء في منافع الأعصاب مثلاً [٢٣٦] واختلاف المشرحين في العظام ويشير إلى ما يسميه «مذاهب الناس في التشريح» [٢٣٧] ونجده يتوقف إذا لم يتحقق من شيء: وقد علمت أنا متوقفون في ثبوت هذه العظام [٢٣٨]. ويشير إلى ما يسميه «مذاهب الناس في التشريح» [٢٣٩] وينقد بعض هذه المذاهب [٢٤٠] على أساس المشاهدة. بل إنه ينقد الآراء المشهورة عند الأطباء كالكلام على الشريانين في القلب. فهذا الرأي عنده كما بينه في شرحه للأعضاء [٢٤١].

---

(٢٢٧) المصدر نفسه ص ١٢١.
(٢٢٨) المصدر نفسه ص ٤٥٠.
(٢٢٩) المصدر نفسه ص ٤٥٢.
(٢٣٠) المصدر نفسه ص ٥١.
(٢٣١) المصدر نفسه ص ١٣٤.
(٢٣٢) المصدر نفسه ص ٤ ٨.
(٢٣٣) المصدر نفسه ص ٥٦، ١١٩، ٢١٩، ٣٤٥.
(٢٣٤) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
(٢٣٥) المصدر نفسه ص ٤٠، ١٤٠.
(٢٣٦) المصدر نفسه ص ٥٠، ٤١٣.
(٢٣٧) المصدر نفسه ص ٢٦١.
(٢٣٨) المصدر نفسه ص ٧٩ - ٨٠، ٨٧ ، ٤٦٠.
(٢٣٩) المصدر نفسه ص ٤٣٣.
(٢٤٠) المصدر نفسه ص ٤١٥، ٤١٩ ، ٤٣٤،
(٢٤١) المصدر نفسه ص ٢٤٩، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢ وانظر ص ٣١٧، واختلاف الناس في التسمية ص ٢٠٨، ١٩٣.

http://kotob.has.it

وقد يذكر لنا أشياء غريبة من مشاهداته: «وكان لنا جار توفيت زوجته عن طفل رضيع، ولم يكن له جدة [٢٤٢] يتخذها مرضعة فتولد اللبن في ثديه، وكان إذا عصر بدنه خرج منه لبن كثير» [٢٤٣] كما كان في دمشق لأحد كبرائها أتان توفيت بعد وضعت جحشا [٢٤٤]، وكانت عنده بغلة قدر لتلك البغلة لبن كثير يجري من ثدييها، فترك ركوب البغلة إلى أن فطمت الجحش، كما يقص بعض القصص التي لا يراها صحيحة، كقصة الصبي الذي طال به الحمل أربع سنوات فولد بأسنان كاملة [٢٤٥].

٩ ـ الفراسة:

ومن المجالات النفسية الطبية التي عالجها ابن النفيس مسألة الفراسة وهي بمثابة اختبارت نفسية، والتشخيص الذي يستدل منه المتفرس من خلال المظاهر الخلقية خصائص نفسية وأحوالا باطنية، وعقد فصلا: «في خواص الإنسان والاستدلال على أخلاقه من بقية أعضائه» [٢٤٦]، وقد ألف الرازي (ت ٦٠٦ هـ) من قبله كتابا في الفراسة [٢٤٧] وسمى هذا العلم بعلم الفراسة [٢٤٨] وعرفه بأنه «الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الاخلاق الباطنة» [٢٤٩] لأن النفس تابعة للمزاج، أو المزاج آلة النفس وهذا العلم دل عليه الكتاب والسنة والعقل فيما يرى الرازي في قوله تعالى: ﴿**إن ذلك لآيات للمتوسمين**﴾ وقوله:

(٢٤٢) كذا في النص ولعل الكلمة: «جاريته» لأن الجدة غالبا لا تكون قابلة للإرضاع.
(٢٤٣) المصدر نفسه ص ٣٩١.
(٢٤٤) المصدر نفسه ص ٣٩٢.
(٢٤٥) المصدر نفسه ص ٩٠.
(٢٤٦) الفصل الثالث عشر من كتابه: رسالة الأعضاء ص ١٥٩.
(٢٤٧) حققه ونشره وترجمه يوسف مراد ونال به شهادة الدكتوراه في السربون. (دون تاريخ).
(٢٤٨) المصدر نفسه ص ٤.
(٢٤٩) المصدر نفسه ص ٤.

http://kotob.has.it

﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ وقوله: ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ و ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾، وفي السنة ﴿ المؤمن ينظر بنور الله ﴾ و ﴿ إن يكن في هذه الأمة محدَث فعمر ﴾ [٢٥٠].

وكذلك استدل الرازي من تريض الراضة للحيوانات كالخيل والبغال والطيور والسباع واستدلالهم على أخلاقها الحسنة أو سلوكها القبيح من الصفات الخلقية الظاهرة، ويصنفه في العلوم الطبيعية، لأنه يقوم على التجارب، ولأنه مثل الطب أيضا[٢٥١]، وقد يحدس الإنسان من آخر صفات باطنة دون الاستعانة في ذلك بصفات محسوسة خارجية، إذا كانت نفسه مشرقة صافية، ولكن الذي يذكر في الكتب إنما هو الاستدلال بالظاهر على الباطن.

ورتب ابن النفيس أعضاء الإنسان للاستدلال منها على أخلاقه ونفسيته، فبدأ بالرأس وما فيه وختم بالساقين، فإذا كان الرأس في نظره كثير اللحم دل على بلادة صاحبه، وكثرة هذيانه، وإذا كان الرأس كبيرا مع علامات أخرى كان كثير السرور، وحسن الأخلاق، وصغر الرأس يدل على لجاجة صاحبه، وتغير آرائه [٢٥٢] و «كبر اللحية جدا دليل على قلة العقل» [٢٥٣] والعينان عنده أكثر الأعضاء دلالة على انفعالات النفس كالفرح، والغضب، والغم، فهما يبرزان في حالة الغضب، وغائرتان في حالة الغم وإذا كانت زاويتها صغيرة «دلت على سوء باطن وخبث شمائل» [٢٥٤]، وتوسط حجمها دال على «فطنة

(٢٥٠) المصدر نفسه ص ٥.
(٢٥١) المصدر نفسه ص ٦.
(٢٥٢) رسالة الأعضاء ص ١٦٢ وذكر في كتابه «تشريح القانون» أن كثرة شؤون الرأس تدل على صفاء الذهن والحواس، ونقاء الأرواح كما أنه بين وظيفة الأنف على النحو نفسه في كتاب رسالة الأعضاء. انظر ص ٦٦، ٨٣ من شرح التشريح.
(٢٥٣) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(٢٥٤) المصدر نفسه ص ١٦٣.

http://kotob.has.it

ومروءة وحسن خلق» [٢٥٥] والعين الناتئة تدل على «اختلاط عقل وجنون» [٢٥٦]، وألوانها أيضا ذات دلالة فالكحلاء مثل دالة على الخير [٢٥٧].

ويدل طول اللسان ودقته، وسعة الفم، على الفصاحة، كما أن قوة الأسنان تدل على طول العمر وقلة لحم الوجه دل على الذكاء وعلى اللطف، وعظم البطن مع قصر القامة وغلظ الأصابع دليل على عدم الاستعداد للعلوم، ووصف النساء بأنهن أرق من الرجال «وأبكى وأحسد وأغضب (.....) وألح وأجزع، وأوقح، وأكذب وأمكر» [٢٥٨] وهذه كله يدل دلالة قطعية على ما زعمه ابن النفيس، كما لا تصدق هذه الأوصاف كلها على النساء كلهن، فهي نظرة اجتماعية توارثها الناس استضعافا منهم للمرأة، وحطا من منزلتها، كما ألزم ابن النفيس المرأة بعدم مغادرة بيتها، وجعل ذلك حكما شرعيا، ومن أطرف الأبحاث عند ابن النفيس مقارناته بين الإنسان والحيوان والنبات في آخر كتابه «رسالة الأعضاء» [٢٥٩].

١٠ ـ الغائية:

نظر ابن النفيس إلى العالم وما فيه من موجودات نظرة غائية، لا نظرة آلية ميكانيكية، فهو مسلم أولا ونظرة الإسلام للكون نظرة غائية قائمة على الحكمة والحق، لا على المصادفة والعبث، أو الضرورة الطبيعية، وهو متأثر أيضا بجالينوس في كتابه منافع الأعضاء Devsu Partium وغيره من الأطباء والفلاسفة، كأرسطو وابن سينا وابن رشد فكل عضو من أعضاء الإنسان له

(٢٥٥) المصدر نفسه ص ١٦٣.
(٢٥٦) المصدر نفسه ص ١٦٣.
(٢٥٧) المصدر نفسه ص ١٦٣.
(٢٥٨) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٢٥٩) من ص ١٦٩ ـ ١٧٨,

http://kotob.has.it

وظيفته وحكمته، وكذلك كل موجود من الموجودات، وهذا يتفق مع حكمة الخالق وعناية الله، التي وصفها المسلمون قبل ترجمة كتب جالينوس وغيره من اليونان [٢٦٠]، فابن النفيس متكلم، وطبيب، وفيلسوف، وفقيه، وهو أقرب إلى ابن رشد في الجمع بين علوم الشريعة والعلوم العقلية، والمقصود بالعناية هنا: «إحاطة الحق تعالى بكيفية نظام الكل، وما يجب أن يكون عليه الكل» [٢٦١] وذلك في العوالم الثلاثة: العقلية والنفسية والجرمية. وأكد ابن النفيس هذه الغاية تأكيدا واضحا، وعقد لذلك بحثا خاصا في كتابه «شرح تشريح القانون» [٢٦٢] وعارض جماعة من قدماء الفلاسفة والأطباء الذين أنكروا الغائية وذهبوا مذهب المصادفة في وجود الموجودات والأعضاء منها، ورأوا أن البقاء للأصلح، يبقى بالتوالد، وما لم يصلح لذلك فني وفسد [٢٦٣] وشرح ابن النفيس رأيهم في المصادفة: «ولا امتناع عند هؤلاء في أن يوجد ما نصفه إنسان، ونصفه سمكة أو بغل [٢٦٤] ونحو ذلك، وليس شيء من ذلك مقصودا بحكمة أو غرض، ولعل في ذلك الفضاء عوالم لا نهاية لها، ونباتات وحيوانات على هيئات غير موجودة عندنا» [٢٦٥] ولكنه يتصدى لهذه النظرة الميكانيكية ليثبت الحكمة والعناية والغائية: «والحق أن هذا باطل، وان الله تعالى وإن كان لا يفعل لغرض، فأفعاله لا تخلو من الحكم، ولولا ذلك لكان هذا الوجود عبثا، وهو

(٢٦٠) ما يرهوف ص ٣٣.
(٢٦١) السهروردي، اللمحات ص ١٤٣.
(٢٦٢) البحث الثالث في إثبات منافع الأعضاء ص ٢٥.
(٢٦٣) المصدر نفسه ص ٢٥.
(٢٦٤) يبدو أنه يسخر من هذه النظرة، أشار ابن سينا في كتاب القانون إلى هذه العناية: «لكن عناية الصانع مصروفة إلى تقريب الأفعال من مبادئها، وإلى توجيه الأسباب إلى غاياتها على أعدل طريق وأقوم منهج إن عني هنا بالأقوم ما هو أكثر استقامة، شرح تشريح القانون ص ١٦٣.
(٢٦٥) المصدر نفسه ص ٢٥.

http://kotob.has.it

محال» [٢٦٦] ويرى من مجال البرهنة على هذا، والبحث فيه يكون في علم آخر، وأن الذي ينبغي الإشارة إليه في مجال التشريح هو «أن الخالق تعالى وحده لعنايته بهذا العالم، يعطي كل متكون ما هو له أفضل من الجوهر والكم والكيف وغير ذلك، فأي شيء من ذلك علم وجوده لعضو، علم أن ذلك العضو لم يكن خلقه كذلك إلا وهو له أفضل» [٢٦٧] وهو يحتاط في تحديده للغاية في الأعضاء، فيرى أنه يمكن أن تكون هناك غايات أخرى خفية لا نعلمها، وإنما الذي جعلناه غاية، هو مجرد ظن منا: «فإذا عثر على منفعة تصلح لأن تكون غاية لخلقه كذلك، ظن أنها هي الغاية، وإن كان يجوز أن تكون خلقته لذلك، لسبب آخر خفي عنا، لا لما ظنناه منفعة، فقولنا مثلا: إن الرأس خلق مستديرا ليكون بعيدا عن قبول الآفات، معناه أن هذا يصلح لأن يكون غاية، لا أنا نجزم أنه إنما خلق مستديرا لذلك فقط، ولذلك فإنا نذكر للشيء الواحد منافع كثيرة، ويجوز أن تكون المنفعة الخفية هي مجموعة تلك المنافع لا واحدة منها، ويجوز أن تكون غير المجموعة، وغير كل واحد مما ذكر، والله اعلم بغيبه» [٢٦٨]، فهو مجتهد متواضع، ولكنه يؤكد المبدأ وهو وجود الغاية والحكمة، ويطبق ذلك على العين الباصرة فيقول: «أما البصر فلما كان بمنزلة الطليعة التي الأليق بها الموضع العالي، وجب أن تكون آلته في أعالي البدن، ووجب أن تكون في مقدمته، إذ أن ذلك أليق المواضع بالطلائع، وتلك الآلة هي العين» [٢٦٩]، كما نرى ابن طفيل أيضا يؤكد هذه الغائية في الموجودات تأكيدا قويا، ورأى أن هذه الغائية هي التي تجعل بطله ينتقل فكره فورا إلى الصانع ويترك المصنوع [٢٧٠].

(٢٦٦) المصدر نفسه ص ٣٥.

(٢٦٧) المصدر نفسه ص ٢٥ لأن الله خير خلق العالم على أفضل ما يمكن أن يكون عليه. تبعا لاستعداد كل موجود.

(٢٦٨) المصدر نفسه ص ٢٦.

(٢٦٩) رسالة الأعضاء ص ١١٧- ٣٦٦ يخشى على العين من التصادم بالأجسام الخارجية. ولذلك جعل لها الالق عظاما ناتئة تقيها.

(٢٧٠) ابن طفيل ص ٩٩.

http://kotob.has.it

ولما تأكد حي بن يقظان من أن جميع الموجودات فعله (الله تعالى) تصفحها من بعد ذا تصفحا على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها، والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه فتبين له في أقل الأشياء الموجودة - فضلا عن أكثرها - من آثار الحكمة، وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار، في غاية الكمال، وفوق الكمال [٢٧١] كما اهتدى إلى منافع أعضاء الحيوان المقصودة بها أيضا، وعندما فحص بطل ابن النفيس أعضاء الحيوان بالتشريح: «علم من ذلك أن وجود جميع أجزاء الحيوان والنبات إنما هي لغايات ومنافع، وأنه ليس شيء منها معطلا، وموجودا سدى» [٢٧٢]، وطبق ابن النفيس هذه الفكرة في الغائية في كتبه الطبية [٢٧٣] وبذلك صار مذهبه الفلسفي مذهبا غالبا متأثرا في ذلك بالقرآن، وبما درسه من آثار الفلاسفة والأطباء، كأرسطو في الفلسفة. وجالينوس في الطب، وهو مذهب في تصور الكون ينفي عنه الآلية والميكانيكية التي يذهب إليها بعض الفلاسفة والعلماء أيضا في عصور سالفة، وفي عصرنا هذا.

١١ - فناء العالم [٢٧٤]:

يتصور ابن النفيس أن العالم ينتهي نهاية تقوم على أسباب طبيعية ناتجة عن كون الشمس تصبح مسامتة لخط الاستواء وما يقرب مه فتحدث حرارة

(٢٧١) المصدر نفسه ص ٩٨ وانظر السبب الغائي في القلب عند ابن النفيس (كتاب شرح تشريح القانون) ص ٣٠٧.

(٢٧٢) الرسالة الكاملية ص ٨ . رسالة الأعضاء ص ٨٨.

(٢٧٣) الحكمة في الأضلاع كتاب شرح التشريح ص ١١٥ وحكمة اليد وشكلها ص ١٢٦، ١٣٨.

(٢٧٤) من الطرائف أن أحمد العلماء وهو فرانك كلوز ألف كتابا سماه: النهاية، الكوارث الكونية، ومصير العالم سنة ١٩٨٨ وترجم إلى العربية، ونشره المجلس الوطني للثقافة والفنوان والآداب، الكويت في سلسلة «عالم المعرفة» رقم ١٩١ في جمادى الأولى ١٤١٥هـ - تشرين ثان ١٩٩٤م، توقع احتمالات لنهاية الكون ومنه انفجار الشمس وحرارتها وهو ما يلتقي فيه مع ابن النفيس.

http://kotob.has.it

شديدة ويتناقص بعدُها عن الشمال والجنوب ويلزم من ذلك: «شدة إفراط الحر في الإقليم الأول (... ...) وشدة إفراط في البرد في الإقليم الرابع فيقوى البرد فتخرج أغلب المواضع الأرضية عن لاعتدال فتفسد أمزجة الناس، وتضعف قلوبهم، ويكثر فيهم موت الفجاءة، والأخلاق الرديئة والنزاع، وتكثر الحروب والفتن، وسفك الدماء وتنقلب الأمور لفساد أذهان الناس، فيتقدم أهل الشر ويتأخر أهل الخير، وترتفع العلوم، وتؤدي شدة الحر إلى اندلاع النيران فيحدث حريق باليمن ثم يعمّ الأرض كلها. وتندك الجبال، وتكثر الزلازل والخسوف وتختلف صور الناس ويكونون على صورة الدواب، ونظرا لكثرة الحروب، يقل الرجال وتكثر النساء، ويكثر الفساد، وتقل الأرزاق وتغلو الأسعار وتقوى السرقة والنهب، ثم تمنع شدة الحر وشدة البرد من الحياة والصحة، وينتقل الناس من إقليم إلى آخر ويتقاتلون، وإذا بطل ميل الشمس نهائيا، لابد أن تبدأ دورة أخرى في الميل، وإذا قوى ميلها عادت الأرض إلى وضعها الأول، وحدث هواء صالح للحياة، وفي الشتاء تنزل أمطار غزيرة ويمتزج التراب بالماء، ويتهيأ الجو لبعث الناس، فهذه قصة القيامة، فالشمس ودرجة ميلانها هو السبب الرئيسي في ذلك كله والحرارة والبرودة هما اللذان لها دور في القيامة، فهذا تفسير طبيعي واضح.

١٢ ـ البعث:

صور ابن النفيس البعث على نحو ما صور به نشأة الإنسان بطريق التولد، فإذا امتزج التراب بالماء وصار هذا الامتزاج متعفنا بالحرارة، (حرارة الشمس)، أصبح مهيأ لن يتولد منه بدن الإنسان، وكذلك الحيوانات، ولكن بالنسبة للإنسان فإن البداية في بعثه، هي «عجب الذنب»، الذي تعود إليه النفس لتتعلق به وتغذيه [٢٧٥] من ذلك الطين الممتزج، وما فيه مادة لطيفة

(٢٧٥) الرسالة الكاملية ص ٥٣ .

http://kotob.has.it

جدا، وبهذا الغذاء تنمو أبدان الناس، وتكمل، ويبعثون على نحو ما كانوا في حياتهم الأولى. ويكون البعث روحانيا بدنيا معا [٢٧٦] ويتمتع باللذات الحسية والروحية أو يشقى حسيا ومعنويا، وكما أشرنا من قبل فإن «عجب الذنب» مادة لا تفني عنده، فإذا جاء وقت البعث «نهضت النفس حينئذ وغذت هذه المادة بجذب المواد إليها، وإحالتها إلى مشابهتها فيحدث من ذلك البدن كرة أخرى، ويكون هذا البدن هو ذلك البدن الأول» [٢٧٧] ويقصد بذلك وحدة المادة والنفس، وبهذا يكون المعاد، وتأخذ النفس في الاغتذاء إلى الأبد، ولا ينفى هذا البدن الجديد فهو في نعيم مقيم، وأما إذا كان في النار، فإنه كلما احترقت أجزاء بدنه عادت النفس وولدت من المواد التي تتغذي بها بدنا آخر، فكأن هذه الأبدان تحيط بتلك المادة «عجب الذنب» ولذلك تسمى جلودا، وتتبدل هذه الجلود، ما دام أصحابها في النار [٢٧٨] .

من أين جاء خلود «عجب الذنب»، وأنه أساس بعث الناس الذي تتعلق به النفس، فهل الناس كالنبات و «عجب الذنب» كالبذور؟ أعتقد أنه أخذ هذا من الحديث المشهور: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق، ومنه يركب» [٢٧٩] وفي رواية أخرى: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل». قال: «وليس في الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» [٢٨٠]. وفي رواية: «إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا، فيه يركب يوم القيامة، قالوا أي عظم هو يا رسول

(٢٧٦) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٢٧٧) المصدر نفسه ص ٣٠.
(٢٧٨) المصدر نفسه ص ٣٠.
(٢٧٩) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ما بين النفختين، والنسائي وأبو داود، ورمز له السيوطي بالصحة.
(٢٨٠) صحيح مسلم وشرحه للنووي، القاهرة ١٣٩٢هـ، ج١٨، ص ٩١ .

http://kotob.has.it

الله؟ قال: عجب الذنب» [٢٨١] وعجب الذنب هو العظم اللطيف في أسفل الصلب وهو رأس العصعص [٢٨٢]، وبهذا فهو اعتمد على هذا الحديث الصحيح، وجعله مقدمة مسلمة في تولد الإنسان أول نشأته، وفي نهوضه وبعثه أو معاده، ولم أجد ـ فيما أعلم ـ أي فيلسوف أو متكلم كالرازي مثلا أشار في كلامه على المعاد إلى هذا المبدأ، كأنهم رأوا أن العقائد لا تتبني على الحديث الذي يمكن أن يكون ظنيا في ثبوته، فهو خبر آحاد لا تواتر فيه، فالبخاري لم يورده في صحيحه وبذلك يكون ابن النفيس قد تناقض ما ذهب إليه في مختصره من أصول الحديث، إلا أن يقال إن هذا اجتهاد منه في تأويل المعاد لا في إثبات أصله.

١٣ ـ الاجتماع البشري [٢٨٣]:

يمكن القول بأن ابن النفيس وصل إلى حقائق تاريخية بتأمله، ووضعه لمقدمات تلزم عنها أحداث في سلسلة من العلل والمعلولات، ابتداء من سيرة الرسول، إلى خلفائه، والنزاع بين الصحابة إلى ما أصاب الأمة من فتن وحروب خارجية وداخلية، وماذا سيحدث أيضا من بعده من توقف التاريخ، وفساد النوع البشري، فتحدث عن تدبير المنزل، وتدبير المجتمع سياسيا بوضع عقوبات على السلوك الذي يؤدي إلى فساد المجتمع، وإلى ضرورة وجود ضبط اجتماعي. فمن الناحية السياسية رأى أن وجود خليفة وخلافة أمر ضروري،

(٢٨١) صحيح مسلم، ج٣، ص ٥٢.

(٢٨٢) شرح مسلم ج ١٨، ص ٩١. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، القاهرة ، ١٩٦٣ ج٣، ص ٥٢.

(٢٨٣) قد أشرنا من قبل إلى أخذه بمقولة اجتماعية «الإنسان مدني بالطبع» كما ذكر أرسطو والفارابي وأن بطله تحول من الحالة الطبيعية إلى الوضع المدني أو الحضري، وأن كمال الحياة والمعيشة إنما يكون في مجتمع تقسم الأعمال فيه والخدمات، ويحكمه قانون في العلاقات بين أفراده، ص ١٠.

http://kotob.has.it

لينفذ الأحكام الشرعية، فيكون الخليفة مطاعا، يجبر الناس على العدل، فيكون هذا الملك ونوابه في كل مدينة. هم الذين يمنعون كل ما يؤدي إلى فساد حال النفس، أو فساد حال المال أو فساد العقل» [٢٨٤] وما إلى ذلك من الأحكام الشرعية التي تبين ضرورتها، كما يرتب الخليفة الأمور الاقتصادية والإنفاق على الجيش والأئمة والفقراء والمساكين وما إلى ذلك من مصارف الزكاة والجزية، ومن دواعي وجود خليفة ضرورة دعوة الناس إلى الدين وحفظه والدفاع عنه، وأن يكون الخليفة معظما مطاعا، ولا يكون سبيل إلى وجود خليفة معين منصوص عليه كما يرى الشيعة.

ويتحتم في نظره وقوع التنازع بين الصحابة والقتال لأن الناس طبعوا على حب الرئاسة [٢٨٥]، ولابد أن تكثر الأهواء، وأن يختلف الناس أيضا في فهم الدين، أصوله وفروعه، وأن تتعدد المذاهب.

وأن تظهر في الأمة مخالفات للشريعة. وخاصة شرب الخمر، لشدة ميل الناس إليها واللواط، «لأجل شدة الشبق وقوة شهوة الجماع على الناس» [٢٨٦].

وهذه المخالفات للشرع تؤدي بالضرورة إلى فساد، وهو يؤدي إلى أن يعاقب الله الأمة بالقتل والاستيلاء على بلادهم، وهذا يقوم به كفار يأتون من أقاليم معينة، ولهم أوصاف معينة، وهم المغول الذين سيطروا على شرق البلاد

(٢٨٤) الرسالة الكاملية ص ٣٤.
(٢٨٥) المصدر نفسه ص ٣٨.
(٢٨٦) المصدر نفسه ص ٤٠ .

http://kotob.has.it

الإسلامية، وبغداد سنة (٦٥٦هـ) وحسب أن المغول شر ضروري، رسم صفاتهم الخلقية والنفسية بيد أنهم لا يستطيعون الاستيلاء على البلاد البعيدة عنهم، إذ يجدون مقاومة ولهذه المقاومة شرطان: كثرة الجيوش، وقائد ذو شجاعة فائقة، وهو السلطان، وهذا يتطلب زيادة في الإنفاق، وفرض الضرائب على الناس قهرا، وبحسب ابن النفيس هذا تطهيرا لهم من معصيتهم، لأنهم يستحقون هذا العقاب. وبذلك تقل الأموال، وتكثر السرقة، وتسوء المعيشة، وهذا كله تصوير للواقع الذي كان يعيشه في عصره.

ووصف الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦ هـ) الذي كان طبيبا خاصا له وصفا جسمانيا ونفسيا مفصلا، مما يدل على معرفته معرفة مباشرة [٢٨٧]، ومدحه مدحا واضحا بوصفه هذا، وتغاضى عن غدره بقطز سيف الدين (ت ٦٥٨ هـ) الذي هزم المغول في معركة عين جالوت المشهورة سنة ٦٥٨هـ وقتله عند عودته من هذه المعركة الحاسمة، كما وصف قلاوون الملك المنصور سيف الدين (ت٦٨٩ هـ) الذي خلفه [٢٨٨]، وحدد أوصاف الوزير الذي يساعد الملك، الذي قد يخلفه في تدبير أمور المملكة ,

وتصويره لسيرة الرسول (وللتاريخ الإسلامي إلى عهده ليس فيه أي إبداع فكري، وإنما هو نصف انتقائي [٢٨٩] ، وتبريري أحيانا، إذ تصور سلسلة من حوادث التاريخ تصورا حتميا، ووقف من الفتنة الكبرى موقفا ضروريا إذ جعل تلك الفتنة ضرورية لضرورة الصراع على السلطة، كان الصراع عنده أيضا ضرورة طبعت عليها نفوس الناس، ووقف من هذه الفتنة أيضا موقف السلف، ربما يتناقض مع موقفه في الرسالة الكاملية حيث أوضح أن ما صدر

(٢٨٧) لك نشر المصادر إلى كونه طبيبا خاصا للظاهر بيبرس.
(٢٨٨) الظاهر بيبرس وقلاوون كلاهما من أصل تركي من قبائل القفجق جنوب روسيا والقوقاز.
(٢٨٩) فهو لم يشر مثلا إلى قتال بيبرس للفرنجة وإلى الحروب الصليبية واحتلال بيت المقدس.

http://kotob.has.it

عن الصحابة من خلاف ومقاتلة وسباب، إنما كان ذلك كله بسبب تصلبهم في الدين: «وأما الحق فإن جميع ما صدر عن الصحابة رضى الله عنهم من الخلاف بينهم، والمقاتلة، والسب، ونحو ذلك فإنما كان عن تصلب منهم في الدين، وسعى لمصالح المسلمين، ومن صح خطؤه منهم فليس ذلك مما يقدح في دينه ولا في عدالته هذا معتقدنا فيهم» [٢٩٠].

١٤ ـ التربية:

اشتغل ابن النفيس بالتعليم، وتعليم الفقه كما فعل في المدرسة المسرورية، وبهذا فهو معلم ومرب وأشار إلى ضرورة بناء المدارس، وأن توقف عليها أوقاف لطلابها الساكنين بها، والدارسين فيها ليصرف من ريعها عليهم، وهذا ما يعبر عنه في زماننا هذا بالمنح الدراسية، والمرتبات بالنسبة للأساتذة، وذلك لأن حفظ الكتاب ومعرفة معانيه، وحفظ الحديث وفهم معانيه يتوقف على هذه المدارس وما يصنف من مؤلفات في العلوم لتبقى على مر الأجيال [٢٩١]، ويستعمل في تأليفه عبارات واضحة ليسهل أمرها على المتعلمين، ولتيسير التعليم [٢٩٢] كما أن العبارات التي يفضل أن يشرح بها: «إنما هو ليفهم المتعلم، وتقريب الأمر إليه في التصور» [٢٩٣]. ويذهب في تربية النبي مذهبا غريبا، فأوجب موت أبيه وموت أمه وأن يربيه غيرهما من أقاربه، وأن تكون مرضعته خارج مكة يختلف مزاجها عن المكّيات، وفي هواء غير هوائها مع شفقة فائقة ومحبة [٢٩٤] وهذا معقول.

(٢٩٠) مختصر في أصول الحديث ورقة ٢٤. وانظر يوسف زيدان، مقدمة تحقيق رسالة الأعضاء لابن النفيس ص ٥٣.
(٢٩١) الرسالة الكاملية ص ٣١ ـ ٣٩.
(٢٩٢) شرح تشريح القانون ص ٤٠٩.
(٢٩٣) المصدر نفسه ص ٤٥٢.
(٢٩٤) الرسالة الكاملية ص ١٨ ـ ٢٠.

http://kotob.has.it

١٥ ـ الجمال:

سجل ابن النفيس لمحات جمالية في بعض مصنفاته، تدل على اهتمامه بالجانب الجمالي، لما تكلم عن فائدة الأسنان أشار إلى الناحية الجمالية فيها: «وسادسها الجمال وحسن الفم عند التبسم» [٢٩٥] وعندما تكلم عن الأظافر بين الفائدة الثالثة منها أنها: «تكون زينة لأنه (الظفر) مسحن شكل الأصابع، إذ لولاه لكان شكلها مستقبحا» [٢٩٦]، كذلك في حديثه عن تشريح عظم الكتف، وعظمه، وعن الترقوة قال: «وأقول: إن لهذا العظم منفعة أخرى، وهي تحسين الخلقة، إذ لولاه لبقي موضعه غائرا جدا فكان يصير سطح الظهر مستهجنا» [٢٩٧] ووصف عظم العانة بأنه «يحسن بسببه شكل خصر الإنسان ، ويكون قوامه مستحسنا، وذلك بأن ينتقل البدن من ضيق الخصر، إلى ثخانة العجز، وما يتصل بها بعد سعة ما بين عظم الخاصرة» [٢٩٨]، وكذلك عندما تحدث عن تشريح فقار الظهر، بين السبب الجمالي في ذلك: «والسبب في أن الفقرة الثانية عشرة بلا جناح هو أن يكون الإنسان خصر، فهذا محسن للصورة» [٢٩٩].

ولم ينس أن يشير إلى جمال الأصوات اللذيذة في كلامه عن حاسة السمع فإنه: «تجلب إلى البدن النفع بالأصوات النافعة، بأن تلتذ هذه الحاسة فتحرض النفس على استماعها، والاستكثار منها» [٣٠٠] وكذلك اللمس في التذاذ هذه الحاسة وترغيبها في ذلك والاستكثار منه [٣٠١].

---

(٢٩٥) المصدر نفسه ص ٨٩ عندما تحدث عن الفائدة السادسة من الأسنان .
(٢٩٦) المصدر نفسه ص ١٤١.
(٢٩٧) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٢٩٨) المصدر نفسه ص ١٤٢.
(٢٩٩) المصدر نفسه ص ١٠٤.
(٣٠٠) المصدر نفسه ص ٣٣٥ ويوصي بأن يحف المجلس «بالمنظر اللذيذ والأزهار والمحبوبين من الناس، الأرييج اللذيذة، والسماع والطرب وليكن المجلس مشرفا فسيحا بقرب المياه الجارية، ومع الظرفاء من الأصدقاء، الموجز في الطب ص ٥٧، ٥٩..
(٣٠١) المصدر نفسه ص ٣٣٥.

http://kotob.has.it

ومن منافع الشعر الزينة كشعر الرأس واللحية [٣٠٢]، وجعل هيئة النبي في بدنه هي نموذج الكمال الخُلقي، فلا يكون قصيرا جدا، ولا مفرط الطول، ولا تكون في بدنه عاهة، ولا مرض منفر، وتكون أعضاء جسمه متناسبة متناسقة غير خارجة عن الاعتدال، و يكون بساما هشا، بشا (...) قوي الحواس والذهن فصيح اللسان[٣٠٣] وهذه هي صفات من كان مزاجه معتدلا، لأن الصفات النفسية تابعة للمزاج، وأن تكون شهواته باعتدال، ولكن بعضها يليق به أن يكون قويا «كشهوة الطيب وشهوة العبادات وشهوة الباه»[٣٠٤] لمخالطته الناس بالطيب، ولكمال الرجولية في شهوة النساء، ولشدة قربه واتصاله بالله في الصلاة واستغراقه فيها استغراقا تاما، ولأن التوجه إلى الله فيها اشد من التوجه إليه في غيرها من العبادات [٣٠٥]، ومن الواضح أنه اعتمد في هذا ما ورد من أحاديث وأخبار السيرة النبوية الشريفة، ولكنه أوجبها بالعقل، وبالعلم الطبي مثل اعتدال المزاج وما إليه.

*****

(٣٠٢) رسالة الأعضاء ص ١٥٦.
(٣٠٣) الرسالة الكاملية ص ٢١ ـ ٢٢.
(٣٠٤) المصدر نفسه ص ٢١.
(٣٠٥) المصدر نفسه ص ٢٠ ـ ٢١ .

http://kotob.has.it

هذا ما جاء بقلم عمار الطالبي في تعريف فلسفة ابن النفيس مقارنة بمن كتبوا في مثل هذه المواضيع. عرضها في المؤتمر الثاني عن ابن النفيس بالكويت وهذه الدارسة فى أعتقادنا فريدة وجب مماثلتها ومحاكاتها وانتقاء مواضيع مماثلة كي ينبثق فكر عربي أصيل يستنبط فكر الأقدمين وجذوره الممتدة وفروعه المتفرعة.

العودة إلى الماضي ليست هروباً بل زيارة مؤقتة تعمق الشعور بالانتماء والأصالة، وتبعث الأمل في المستقبل.

****
***
*

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

خاتمــة

هذا الموجز يثبت أصالة تفكير وعمل هذا الطبيب العالم الذي ثار على المفاهيم المتوارثة وأسهم في إعادة النظر في العلم الطبي والتجريبي مما مهد في حال انتقاله إلى الغرب في بذر البذور الأولى للنهضة العلمية الأدبية التي ابتدأت بحرق كتب ابن سينا وجالينوس وإعادة اكتشاف العالم.

*****

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

أ/ المخطوطات:

١ ـ ابن أبي صبيعة: عيون الأنباء في طبقا الأدباء. مخطوطة المكتبة الظاهرية في دمشق رقم (٤٨٨٣).

٢ـ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في أخبار ملوك الأمصار. مخطوطة دار الكتب المصرية ـ القاهرة رقم ٩٩م.

٣ـ ابن النفيس: شرح تشريح القانون. مخطوطة المكتبة الظاهرية في دمشق رقم ٣١٤٥ طب ٣٠.

٤ـ ابن النفيس: شرح تشريح القانون. مخطوطة المكتبة الظاهرية في باريس رقم (٢٩٣٩).

٥ـ بدر الدين محمود بن أحمد العيني عقد الجمان في تاري،خ أهل الزمان، مخطوط بشير آغا (٤٥٧).

٦ـ المؤلف مجهول: مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس رقم (٥٧٧٦).

ب/ الكتب المطبوعة:

١ـ ابن أبي صبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥.

٢ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب. المكتب التجاري ـ بيروت ـ الجزء الخامس ـ الصفحة ٤٠١.

٣ـ ابن كثير: البداية والنهاية. مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ١٩٧٧ ـ الجزء ١٣ ـ الصحفة ٣١٣ .

٤ـ الدكتور أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام. المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٣٥٧هـ/١٩٢٩م.

http://kotob.has.it

٥ـ الدكتور أحمد عيسى بك: معجم الأطباء. مطبعة فتح الله ـ مصر ١٣٦١هـ/١٩٤٢م الصفحات ٢٩٢، ٢٩٦.

٦ـ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين. أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. مكتبة المثنى ـ بيروت ـ المجلد الأول صفحة ٧١٤.

٧ـ الدكتور أمين أسعد خير الله: الطب العربي، المطبعة الأمريكانية ـ بيروت، ١٩٤٦ .

٨ ـ الدكتور بول غليونجي: ابن النفيس. مطبعة مصر ـ القاهرة، ١٩٦٦ .

٩ـ تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى. المطبعة الحسينية ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٢٢٤هـ الجزء الخامس الصحفة ١٢٩.

١٠ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. عيسي البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م الجزء الأول ـ الصفحة ٥٤٢ .

١١ـ جمال الدين يوسف بن تغرى بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، الجزء السابع ـ الصفحة ٣٧٧.

١٢ـ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مكتبة المثنى ـ بيروت ـ المجلد الثاني الصفحات ١٠٢٤، ١١١٤، ١٢٦٧، ١٨٩٩، ٢٠٣١.

١٣ـ خير الدين الزركلي: الأعلام. الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ـ الجزء الخامس الصفحة ٧٨.

١٤ـ الذهبي: تاريخ دول الإسلام. طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٦٥هـ ـ المجلد الثاني ـ الصفحة ١٤٥ .

http://kotob.has.it

١٥ـ زين الدين عمر بن الوردي: تاريخ ابن الوردي «تتمة المختصر في أخبار البشر». دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م الجزء الثاني الصفحة ٣٣٤.

١٦ـ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات. فرانز شتاينر ـ فيسبان (ألمانيا) ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

١٧ـ طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

١٨ـ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس. مطبة الترقي ـ دمشق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م الجزء الثاني ـ الصفحة ١٣١.

١٩ـ عبد الله بن أسعد على بن سليمان اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان. مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ـ المجلد الرابع ـ الصفحة ٢٠٧.

٢٠ـ المجلس الأعلى للعلوم في سورية: مهرجان أسبوع العلم الثامن ـ دمشق ١٩٦٧، الكتاب الأول: مهرجان ابن النفيس.

٢١ـ محمد باقر الموسوي الخوانساوي: روضات الجنات حول العلماء والسادات. مصر ١٣٤٧هـ الصفحات ٤٩٤، ٤٩٥.

٢٢ـ الشيخ نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ٣ أجزاء. تحقيق: د. جبرائيل سليمان جبور ـ دار الآفاق الجديدة ـ الطبعة الثانية ـ بيروت (شمس الدين محمد بن مكي، الجزء الثاني ـ الصفحتان ٥٩ ـ ٦٠).

*****

http://kotob.has.it

المراجع العربية:

- ماهر عبدالقادر محمد علي ـ مقدمة في تاريخ الطب العربي ـ دار العلوم العربية ـ بيروت لبنان ١٩٨٨ .
- عباس سليمان وحسان حلاق ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ـ دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٨م.
- ابن النفيس ـ مؤلفات ابن النفيس علاء الدين على بن أبي الحرم القرشي ٦٨٧هـ ـ رسالة الأعضاء مع دراسة حول ابن النفيس ومنهجه وإبداعاته ـ تحقيق يوسف زيدان ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٩٩١ .
- ابن النفيس على بن أبي الحرم القرشي الدمشقي ـ سلسلة التراث الطبي الإسلامي ـ علم الكحالة ـ المهذب في الكحل المجرب ـ تحقيق محمد ظافر الوفاني ومحمد رواس قلعة جي ١٩٩٤ ـ مطبعة سفير ـ الرياض.
- ابن النفيس ـ مؤلفات ابن النفيس ـ علاء الدين بن على بن أبي الحزم القرشى ت ٦٨٧هـ ـ شرح فصول ابقراط ـ تحقيق يوسف زيدان وماهر عبدالقادر ـ الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٠ .
- ابن النفيس ـ مؤلفات ابن النفيس ـ علاء الدين بن على بن أبي الحزم القرشي ت ٦٨٧ ، المختار من الأغذية مع دراسة نظرية التَّداوي بالغذاء، تحقيق يوسف زيدان الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٩٩٢ .
- عبدالرحمن العوضي، عبدالحميد البسيوني، أحمد رجائي الجندي، مختار بشر: ابن النفيس الطبيب والفقيه والفيلسوف. ثبت كامل لأعمال الندوة التراثية الثانية. سلسلة مطبوعات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية السلسلة التراثية (الندوة الثانية) الكويت ١٩٩٩ .

*****

http://kotob.has.it

جـ/ المراجع الأجنبية:

1 - AT - TATAWI (Muhyi I d- din) : des Lungenkreislauf nach elkerachi. These medicines, Feiburj i. Br. 1924. Dactilographica, non. Vonsultee.

2- BINET (L) HERPIN. (A) : Bulletin del' Academie Nationale de Medecine, Teme 132 No. 31 et 32, Oct. 1948. Paris, Massent et Cit PP, 542- 549.

3- HADDAD (S) et KHAIRALLAH (A) : Un chapitre cubline dnas I'histoire de la circulation du sans les " Annals od / Surgery", Vol. 104, Juin 1036 NO. 1, pp1 A 9 (en anglais).

4- CHEHADE (A.KARIM) : Ib An - Nafis et al decouverte de la circulation pulmonaire, Institut Fraancis de Damas, Imprimerre Catholique, Beyrout, 1955.

5- LABRY (ch.) : G.HARVEY. Etude anatemique du mouverment du coeur et du saqng chez les animauz Apercu historique et traduction Francaise, Paris, Dein et Cit., 1950. PP. 23 a 25 .

6- LECLERC (L) : Historire de la medecine arabe, 2 tomes, Paris, lereux 1876.

7- MEYERHOF (M) : La decouverte de la circulation pulmonaire par Ibn an - Nafis dans le " Bulletin de I'Ibnstitut d'egypte", teme XVI, essio 1933 - 1934, le Caire, 1934.

8- MEYERHOF (M) : Ib An - Nafis UND SEINE THEORIE DES LUNGESKREILAUFS DANS " Quelien und Studien zur Ceschichte des Naturwissenschaften und der Medicin", Vol. IV (1), Berlin 1933, PP. 37 - 88 .

9- O"MALLEY (ch. D) : Latin translation od Ib An - Nafis (1547) related to the problem of circulation od the dlood in " Jour. Hist. Med" vol. 12 PP. 248 - 253, 1957.

10- Histoire de la medecine et du livre medicale. Dr A. Hahn p. dumaitre, J. Samion - Contet edit Olicie Berrin Paris 1962.

11- Grand dictionnaire encyclopedique Larousse, 1982.

12- Dr. Catahier S. Histoire de la cecouverte de la petite cirvulation sanguine Rabat (Maroc) 1989.

*****

http://kotob.has.it

Contributions to science of Ala al-Din Abu'l-Hasan Ali Ibn Abi'l-Haram al-Qurashi(Ibn al-Nafis) and its influence on the European renaissance

Mohamad S. M. Takrouri MB. ChB. FFARCS (I)

Professor of Anesthesia

Department of Anesthesia

King Khalid University Hospital Riyadh

Riyadh 11461 P.O. Box 2925

takrouri@ksu.edu.sa

Maizer Khalaf MD FKSU(Anesthesia)

Consultant

King Khalid University Hospital Riyadh

Riyadh 11461 P.O. Box 2925

http://kotob.has.it

Background

In the year 1924 a heated debate started regarding the discovery of the pulmonary circulation. As was believed it was attributed only to European scholars. It stemmed back to the sixteenth century. When Michael Servetus (1511-1553), Anderea Vesalius (?1514-1654), Nicolai Massa (1485-1569), Realdo Colombo (1520-1654), Valverde De Hamusco (1508-1565), Andera Cesalpino (1519-1603), Fabrici d'Aquapendent (1533-1619) and William Harvey (1578-1657) developed the concept. However, Muhyi-d-din At-Tatawi (1896-1945) presented his thesis "Der Lungenkreislauf nach El-Korachi. Dissert, z.eil. d. Doktorwrde, Freiburg im Brisgau 1924" of the blood circulation according to al Qurashi relaying on his discovery of his description of pulmonary circulation in one of ancient manuscripts, He proposed that the real credit for the discovery of the pulmonary circulation belongs this eminent physician of the thirteenth century: Ibn al-Nafis. Later another doctor Abdul Kareem Chihade (1922-) presented another dissertation in Paris 1951 entitled "decouverte de la circulatio pulmonaire chez Ibn an-Nafis". Published by "Institut Francais De Damas" 1955. Other prominent professors like: Paul Galiounji and Salman Qatayyah researched extensively in his manuscripts and produced very important monographs. Even recently Ayman Soubany and Farouq Khan advocated the credit to Ibn Al Nafis for the discovery of pulmonary circulation. This kept in the background other prospective regarding Ibn al-Nafis. Many Scientific meeting were studying the collection of contributions of this physician; the latest was the 2nd seminar on Ibn al Nafis the physician, the scholar and the philosopher. This was under supervision of Dr Abdul Rahman al Awadi and editors Abdul Hamid Dousouki, Ahmad al-Jindi and Mukhtar Bishr in Kuwait . The general consensus is that Ibn al-Nafis' work exerted great influence on the development of medical science, both in the Islamic world and Europe. A closer look on Ibn al-Nafis contribution would indicate that he also described the coronary circulation, the cranial nerves the gall bladder anatomy and many new aspect of ophthalmology. He advocated as well therapy through nutrition. His work integrated the medical knowledge with great clarity and emphasized precision. The purpose of this article is to update the notes on Ibn al-Nafis.

http://kotob.has.it

Who Ibn al-Nafis was?

Ala al-Din Abu'l-Hasan Ali Ibn Abi'l-Haram al-Qurashi, known as Ibn al-Nafis. He was born about 607 AH 1210 AD in a village near Damascus called "Quersh'. He learned medicine at the age of 22 (629 AH 1232 AD) in Aldakhoiriah School. Given the name of its founder; Al-Dakhwar (Died 728 AH). He studied the books of famous pioneers Muslims physicians such as Rhazes, and Avicenna also he read Galen and Hippocrates. He practiced Medicine in al Nuri's bimaristan. (Currently is the museum for Arabic medical sciences in Damascus, Syria).

1. The name of ibn Al Nafis in this manuscript we can see his name depected as Ala al-Din Ibn Abi'l-Haram al-Qurashi

2. Al Qureshi quarter in AlMidan district in Damascus (a) The gate (b) inside the Alley

(a)

(b)

http://kotob.has.it

3. Al Nuri 's bimaristan gate in Damascus where Ibn Al Nafis spent his formation years

In (636 AH 1236 AD) Ibn al-Nafis departed to Egypt, as he was invited by the Sultan to work in Al-Naseri Hospital as oculist. Then he became Egypt physicians' chief and the Sultan Zaher Bebars's personal physician. Not only he was physician, he also read and taught theology in al Masrouriah School for Shafei's doctrine in Islam. Just three years before his death he was appointed the dean of Qalaoon bimaristan Al Mansouri.

http://kotob.has.it

4. Qalaoon Mosque (a) and Bimaristan Al Mansouri (b)(under restoration) in Cairo Egypt where Ibn al Nafis practiced medicine and he was the dean.

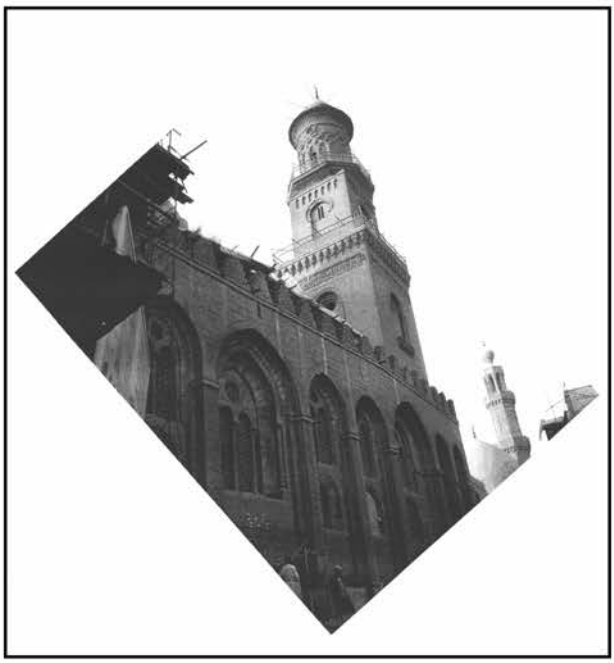

(a)

(b)

http://kotob.has.it

He wrote medical books mainly, and he tackled various topics concerning religion and Prophet Mohamad's hadith. He mingled with the high society of Egypt. He had many scientific followers; the most famous of Egypt Hakeems (Physician scholars). There are many debates among the historians concerning the following items:

1. His name; weather Abu Al Hazm or Abu Al Haram.
2. His principle teacher was he Al Dakhwar as mentioned in many reference books?
3. His social status if was married or not.
4. His date of birth and Death

The latest confirmation search notes the name as Abu Al Haram, He started learning Mdicine at the age 22 , ie in the year 629 AH. While Al Dakhwar died in the year 628 AH.

He was married but died alone no route to parents, spouse or offspring

On Friday 21th Dhulqadah 687 AH, December 17th, 1288 AD. Most of the historian agreed with this date. He died at the age of 80 after an unknown illness. so he was born 607 AH

5. Picture of painting of artist impression of Ibn Al Nafis (rSource Islam set)

As with most of the Muslim physicians at his time, Ibn al-Nafis excels in medicine. He wrote valuable books such as:

http://kotob.has.it

1. "Al Shamel Fi al Tobb; Reference Book for Physicians, (Still in the form of Manuscript).
2. "Al Mouhazab Fi Al Kouhl Al Mujarrab"; Polished Book on Ophthalmology, (Published book).
3. "Shareh Takdemet Boukrat" Commentary on Hippocrates, (Published book).
4. "Epidemia' Epidemics by Hippocrates,
5. "Sharih Al adwiah al moufradah wal murakabah" Commentary on Materia Medica and Compound Drugs.
6. "Sharh Tashrih al Qanoun" Commentary on the Anatomy of the Canon of Avicenna, (Published book) in which he described the pulmonary circulation accurately to the best available knowledge.
7. "Al Moujaz Fi al Tobb" Synopsis of medicine (published book).
8. " al Risalah al Kamiliah" The story of Fadel bin Nateek (published book)
9. "Muktasar Ousoul al hadeath". Synopsis of foundation of science of Prophet's hadeath. (Published book)

In general, there are in all 37 titles some of it are still not printed, some are already lost.

Pulmonary circulation description

According to Galen, who put the theory that was accepted prior to Ibn al-Nafis in the second century, the blood reaching the right side of the heart goes through invisible pores in the septum of the heart to the left side where it mixes with air to create spirit and then is distributed to the body. Accordingly the venous blood side is quite separate from the arterial system, except when they come in contact by the unseen pores. Ibn al-Nafis said "...the blood from the right chamber of the heart must arrive at the left chamber. But there is no direct pathway between both chambers. The thick septum of the heart is not perforated and does not have visible pores as some people

http://kotob.has.it

thought or invisible pores as Galen thought. The blood from the right chamber must flow through the vena arteriosa (pulmonary artery) to the lungs, spread through its substances, be mingled there with air, pass through the arteria venosa (pulmonary vein) to reach the left chamber of the heart and there form the vital spirit..."

also

"The heart has only two ventricles ...and between these two there is absolutely no opening. Also dissection disagree to what they said, as the septum between these two cavities is much thicker than elsewhere. The benefit of this blood (that is in the right cavity) is to go up to the lungs, mix with what is in the lungs of air, then pass through the arteria venosa to the left cavity of the two cavities of the heart ...".

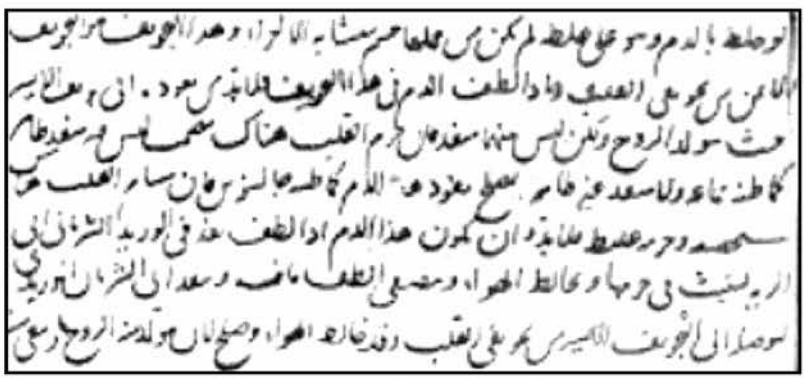

لو خلط بالدم..... وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويفي القلب وإذا لطف الدم في هذا التجويف فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث تتولد الروح ولكن ليس بينهما منفذ فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس فإن مسام القلب هناك مستخصفة وجرمه غليظ فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني إلى الرئة لينبث في جرمها ويخالط الهواء ويتصفى الطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويفى القلب.....

Pulmonary circulation. A prom the manscript of Ibn Nafis.

"the blood (of the right ventricle) passes through the vena arteriosa (=pul - monary artery) to the lung, spreads through its usbstance, mixes with the air and becmes completely purified; then it passes through the arteria venosa (= pulmonary vein) to reah the left chamber of the heart."

http://kotob.has.it

In describing the anatomy of the lungs, Ibn al-Nafis stated,:

"The lungs are composed of parts, one of which is the bronchi, the second, the branches of the arteria venosa and the third, the branches of the vena arteriosa, all of them connected by loose porous flesh... the need of the lungs for the vena arteriosa is to transport to it the blood that has been thinned and warmed in the heart, so that what seeps through the pores of the branches of this vessel into the alveoli of the lungs may mix with what there is of air therein and combine with it, the resultant composite becoming fit to be spirit when this mixing takes place in the left cavity of the heart. The mixture is carried to the left cavity by the arteria venosa".

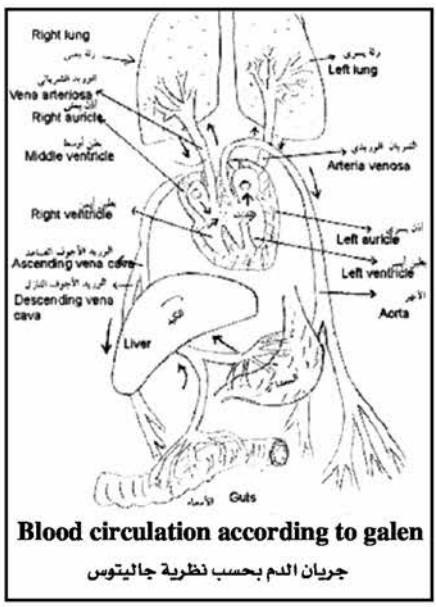

Figure 2. Diagram showing the blood circulation according to Galen's teachings (rModified form Ibn al-Nafis and modern physiology Al-Hajaj in proceedings of symposium on al Soufi and ibn al-Nafis, p.131 Amman, Jordan 1987).

http://kotob.has.it

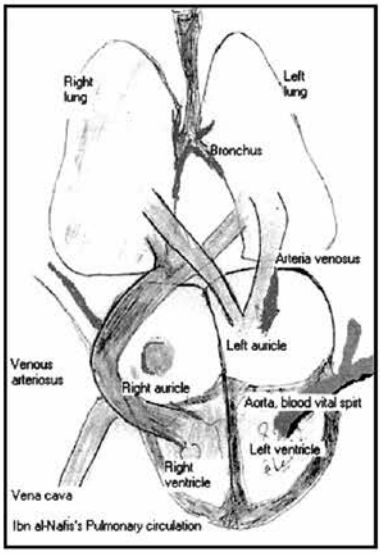

Fig 3. The blood circulation according to Ibn al-Nafis (rModified form Ibn al-Nafis and modern physiology Al-Hajaj in proceedings of symposium on al Soufi and ibn al-Nafis, p.132 Amman, Jordan 1987)

Coronary artery and circulation description

Ibn al-Nafis described that the nutrition of the heart is extracted from the small vessels passing through its wall, when he said:

"... Again his (Avicenna's) statement that the blood that is in the right side is to nourish the heart is not true at all, for the nourishment to the heart is from the blood that goes through the vessels that permeate the body of the heart..."; by this, Ibn al-Nafis was the first to put forward the concept of coronary circulation.

How the idea of ibn al-Nafis reached Europe?

Abdul kareem Chihadah in his contribution to the second seminar on Ibn al Nafis in Kuwait 1979, described the line of ideas travel as follow: 300 years later when some of Ibn al-Nafis' works were translated to Latin language by Andrea Alpago (1450?-1521) "Physicus Damascenus" who lived

http://kotob.has.it

in Damascus for 30 years between (1487-1517) and collected the medical text. After his death his nephew Paulo Alpago published these books. Among these books was Ibn al-Nafis' Sharh al-Qanun. Later on Michael Servetus described the pulmonary circulation in his theological book "Christianismi Restitutio" in 1553, he wrote "...air mixed with blood that is sent from the lungs to the heart through the arterial vein; therefore, the mixture is made in the lungs. The bright color is given to the sanguine spirit by the lungs, not by the heart. Then Andreas Vesalius described in his book "De Fabrica", the pulmonary circulation in a manner similar to Ibn Al-Nafis s' description. An interesting observation is that in the first edition of the book (1543), Vesalius agreed with Galen that the blood "... soaks plentifully through the septum from the right ventricle into the left...". Then in the second edition (1555) he omitted the above statement and wrote instead ..."I still do not see how even the smallest quantity of blood can be transfused through the substance of the septum from the right ventricle to the left...". Another similar description was given by Realdus Colombo in 1559 in his book "De re Anatomica".

Then it was William Harvey who, in 1628, demonstrated by direct anatomic observation in laboratory animals the movement of blood from the right ventricle to the lung and then observed the blood returning to the left side of the heart via the pulmonary vein and again he stated that he could not find any pores in the interventricular septum. He wrote in his monograph, "Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus": "I began to think there was a sort of motion as in a circle. This I afterwards found true, that the blood is pushed by the beat of the left ventricle and distributed through the arteries to the whole body and back through the veins to the vena cava and then returned to the right auricle, just as it is sent to the lungs through the pulmonary artery from the right ventricle and returned from the lungs through the pulmonary vein to the left ventricle, as previously described."

However, he did not understand the physiology of the pulmonary circulation - dissipation of the carbon dioxide and replacement with oxygen, which was fully elucidated by Lavoisier in the 18th century.

http://kotob.has.it

Fig 4. Manuscripts of Al Amri,s Masalik Al Abssar, stating: the time of death of Ibn al-Nafis with some experts regarding his activities, qualities, and behavior during his creative writings.

Ophthalmology contribution

Ibn al Nafis contributed to ophthalmologic literature by writing critically. He recognized that the muscle behind the eyeball does not support the ophthalmic nerve and do not get in contact with it. The optic nerves transect and do not just get in touch with each other. He added many new views regarding treatment of glaucoma and weakness of the vision in one eye when the other is affected by disease. He contributed to healthy being by depending on nutrition and controlling the food of the patient rather on giving drugs and prescriptions.

http://kotob.has.it

Ibn al-Nafis in the eyes of modern western historians;

It may be useful to mention the views of a few modern historians who reviewed the works of Ibn al-Nafis; Mieli said, "Attention has recently been called in the writings of Ibn al-Nafis to a description of the lesser circulation which is strangely reminiscent of the description given by Michael Servetus in the sixteenth century in his "Christianismi Restitutio". We believe that henceforth it is fair to attribute the discovery of the pulmonary circulation to Ibn al-Nafis who was a distant precursor of the physicians of the sixteenth century Italian School and of William Harvey who, four centuries later, described the whole of the pulmonary circulation in an accurate, clear and definitive manner". Max Meyrholf, a distinguished scholar of Arabic historical medicine, was struck by the resemblance of certain essential phrases in the writings of Ibn al-Nafis and Servetus... "It is as though the Arabic work had been translated a bit freely into Latin". And about Colombo's description..."Probably without knowledge of Servetus's book, describes the pulmonary circulation in an almost identical manner, but he adds that there are some anastomoses between the arteries and the pulmonary veins. We have seen that Ibn al-Nafis, three centuries before Colombo, had already noticed visible passages between the two types of pulmonary vessels". In the William Osler Medal Essay on the discovery of the pulmonary circulation, Edward Coppola said, "A comparison of Ibn al-Nafis' description with those of Valverde and Colombo reveals that there are certain striking similarities among these descriptions which seem to suggest more than a coincidental relationship...the theory of pulmonary circulation propounded by Ibn al-Nafis in the 13th century was not forgotten and that centuries after his death it may have influenced the direction of the anatomical investigations of Colombo and Valverde, who finally announced it to the Western world as a physiological fact susceptible to experimental proof".

In conclusion we can enumerate his medical aspects of his contribution to humanity as:

1- Describing of the lesser pulmonary circulation.

2- Describing the bronchi and lungs

http://kotob.has.it

3- Stating that the heart has two ventricles

4- Those coronary arteries are the rout to nourish the heart

5- Depending on dissection to verify these findings.

6- Contribution to the ophthalmology by many new views for his time

7- Stressing the sound principle of controlling the diet in illness and in health

The contributions in other field of knowledge are a different another story.

Some of the Hakeems form the basis of instruction of students of Tibb and Hikma the traditional Islamic Medicine practiced in the subcontinent of India and Pakistan, even today under the banner of Tibb or Unani Medicine.! It would be out of scope for us in this chapter to describe the accomplishments of each of these physicians; however we will proceed with giving you the salient accomplishments of some of the most notable amongst them. For sake of classification the historic periods of the Islamic Physicians can be divided into three parts: 1. The period of Islamic Renaissance: From the beginning of Islam to the end of the Abbasid dynasty. 2. The period of Islamic Epoch: When all sciences including Medicine reached the pinnacle of development under the Islamic patronage. 3. The period of decline: during which the knowlege of Islamic Medicine was translated into european languages and became the basis of further development and discoveries and ultimately led to basis for the development of Modern Medicine.

****

http://kotob.has.it

References

1. At-Tatawi MD: Der Lungenkreislauf nach el-Kerachi. These medicines.(in German) Freiburg i. Br. 1924 Dactilographice, non consultec
2. Chehade AK Ibn an-nafis et la decouverte de la circulation pulmonaire. (French) Institut francais de Damas Imprimerie Catholique, Beyrouth 1955.
3. Galiounji P Ibn al-Nafis; Egypt press Cairo 1966.
4. Qatayyah S. The Arabic Physician Ibn al-Nafis (in Arabic). 1st Ed. Beirut: Arabic Corporation for Studies and Publication, 1984:37-43.
5. Soubani A.O Khan F. The Discovery of the pulmonary circulation revisited. Annals of Saudi Medince March 1995.
6. Al-Hajaj M;Ibn al-Nafis and modern physiology in the proceedings of the conference on Al Soufi and ibn al-Nafis. Jordan University 5-8/10 1978 Amman Jordan. Dar al Fikr; Damascus and Beirut 1991.
7. Al Awadi AR Basiuni AH, Jindi AR, Bishr M: Ibn Al Nafis Physician theologist and philosopher proceedings of the second seminar on Ibn al Nafis in Kuwait 8-10 /8/1418 8-10 November 1997 Publisher Islamic organization for medical sciences Kuwait 1999
8. Ibn al-Nafis, Sharh fusul Bocrat (A Commentary on Hippocrates Aphorisms by Abdel Kader M. Zeedan Y, The Library of Ibn Annafis: Critical Edition and introduction Al Dar Al-Masriah Al-Lubnaniah 1990 Cairo Egypt.
9. Ibn al-Nafis. Al Muhadhab Fi Al Kouhl Al Mujarrab; Critical edition by Waafai M.Z Rawas Kalaaji M. Unceco 1987 Rabat
10. Ibn al-Nafis. Al Moujaz Fi al Tobb; Critical study and introduction; by Al- Azbawi AA, Ammar A Revision Abdel alTawab R : Minstery of Al Aowkaf Cairo-Egypt 1997 2nd edition.
11. Ibn al-Nafis The choice of Foodstuffs study and critical edition by Zeedan Y., The Library of Ibn An-Nafis;, Al Dar Al-Masriah Al-Lubnaniah 1992 Cairo Egypt

http://kotob.has.it

12. Ibn al-Nafis , Risalet al Adhaa ;Critical study and introduction. By Zeedan Y . The Library of Ibn An-Nafis; Al Dar Al-Masriah Al-Lubnaniah 1991 Cairo Egypt.

13. Ibn al-Nafis Ibn al-Nafis

14. Keys TE, Wakim KG. Contributions of the Arabs to medicine. Proceedings of the staff meet. Mayo Clinic 1953;28:423-37.

15. Gordon EJ. William Harvey and the circulation of the blood. South Med J 1991;84:1439-44.

16. Haddad TE, Khairallah AA. A forgotten chapter in the circulation of the blood. Ann Surg 1936;104:1-8.

17. Coppola ED. The discovery of the pulmonary circulation: A new approach. Bull Hist Med 1957;31:44-77.

18. Mettler CC. History of Medicine. Philadelphia, PA, USA. The Blakiston Co, 1947:40-59 and 113-128.

19. Al-Dabbagh SA. Ibn al-Nafis and the pulmonary circulation. Lancet 1978;1:1148.

20. Meyerhof M. Ibn al-Nafis and his theory of the lesser circulation. Isis 1935;23:100-20.

****

http://kotob.has.it

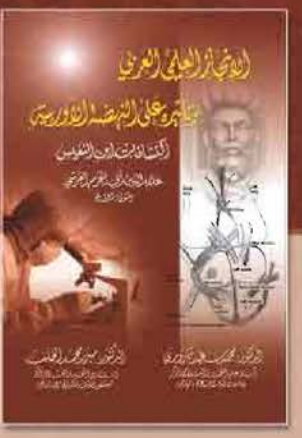

ردمك: ١- ٧٢٢- ٤٣- ٩٩٦٠

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل الملف من

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الاديان

The Guided Islamic Library for Comparative Religion

http://kotob.has.it

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة إسلامية مختصة بكتب الاستشراق والتنصير ومقارنة الاديان.

PDF books about Islam, Christianity, Judaism, Orientalism & Comparative Religion.

لاتنسونا من صالح الدعاء

Make Du’a for us.